رواية

وائل السيد علي

الرجُل الذي أرَاد أنْ يكُون

دار دوّن

الرجل الذي أراد أن يكون

وائل السيد علي: الرجل الذي أراد أن يكون، رواية

الطبعة العربية الأولى: يناير ٢٠٢٤

رقم الإيداع: ٢٧٢٠٥ /٢٠٢٣ - الترقيم الدولي: 3 - 387 - 806 - 977 - 978

جَميـعُ حُـقـوقِ الطَبْـعِ والنَّشرِ محـْـفُوظةٌ للناشِرْ
لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة
بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

إن الآراء الـواردة فـي هـذا الكتـاب
لا تُعبـر عـن رؤيـة الناشـر بالضـرورة
وإنمـا تعبـر عـن رؤيـة الكـاتب.

© دار دَوِّنْ
عضو اتحاد الناشرين المصريين.
عضو اتحاد الناشرين العرب.
القاهرة - مصر
Mob +2 - 01020220053
info@dardawen.com
www.Dardawen.com

وائل السيد علي

الرجل الذي أراد أن يكون

روايـــــة

استيقظت على رنين تنبيه هاتفي المُزعج.. أغلقته، لكنه كان يتكرّر كل دقيقتين حتى كدتُ أُحطّمه. رأسي يؤلمني بسبب قلّة ساعات النوم، فأنا لم أستوفِ حاجتي منه بعدُ. نمت لثلاث ساعاتٍ فقط! صَرَخْت: (هذا ليس عدلًا). فَعَلا صوت أمّي تتنحنح وهي تفتح ستائر النافذة ليغمر الغرفة ضوءٌ وهّاج لم تحتمله عيناي فأغمضتهما ووضعت وسادةً فوق رأسي، فقالت ضاحكةً: (من لا تحتمل عيناه الضوء سيبقى في الظلام)، فرددت في سرِّي: (وما الجديد؟ هذا ما أُحاول فعله)، وظَلَلْتُ على حالي حتى صاحت فيَّ بحسم: (حان وقت العمل يا رائف).

تظنّ أنني نسيت!

منذ تخرجي في الكلية قبل ست سنواتٍ وأنا أتهرّب من كل عملٍ كان يُعرض عليَّ! فخيّرني والدي بين القبول بأي عمل أو أن أشغل وقتي بالدراسة، فحصلت على درجة الماجستير منذ نحو عامين، لأستأنف بعدها الجدل معه لمدّة عام، حتى رحل أبي، وسرعان ما تسلمت أُمّي القيادة لتستأنف مسيرته من بعده بلا يأسٍ، حتى أجبرتني على الاستسلام وتسلُّم العمل قبل خمسة أشهر تقريبًا.

كان والداي ينتظران مني قبول أول وظيفةٍ أُصادفها. حاولت جاهدًا إقناعهما بأن العمل في هذا المجال لا يُناسبني، وأنني في الأساس لم أبذل بحثًا أو جُهدًا كافيًا في اختيار تلك الكلية. بالأحرى؛ هُما من أجبرني على الالتحاق بها!

لطالما قضيت الأيام والليالي ناقمًا على هذا الاختيار وآثاره، أصُبُّ اللعنات على حظّي، حتى صرت أكره نفسي. أمّي كانت تعلم شعوري جيدًا. كان قلبها يتألّم لذلك، فجَلَسَتْ معي ذات ليلةٍ تصف لي مشهدًا تمثيليًّا طريفًا شاهدَتْه على شاشة هاتفها المحمول؛ مُحاضرٌ كان يُلقي مُحاضرته على طُلّابه ساخرًا ممّن يمتلك خمسمائة وخمسة وعشرين ألفًا وستّمائة دقيقةٍ في العام الواحد من عمره، فبدلًا من الانتفاع والاستمتاع بكُل دقيقةٍ بقيت له منها، يُصرُّ على إفناء المزيد منها في الندم والحسرة على مواقف أساء استغلالها أو أخفقت مساعيه فيها.

حقيقةً كانت القصَّة مُقنعةً وأثّرت فيَّ إلى حدٍّ كبير، فحاولت منذ ذلك اليوم ألّا أُضيع الوقت في لعق المرارة ولوم النفس على قراراتي غير الموفّقة التي اتُّخذتها، أو تلك التي فُرضَت عليَّ، وأن أسعى للاستفادة بما تبقّى لي من فرص، وأستمتع بدقائقي وساعاتي المُقبلة في شيء نافع وممتع.

ولكن... أين المُتعة في هذا الاستيقاظ المُبكّر المُقزّز؟ أين السعادة في هذا العمل المفروض عليَّ؟! مكتب الخدمة الاجتماعية الذي - وبكل أسف - اجتزت كل مقابلاته واختباراته بتفوّقٍ ملحوظٍ عن نُظرائي رغم أنني لم أبذل ما بذلوه من استعدادٍ وسعْي، فتم قبول تعييني كباحث اجتماعي به، لأهرع إلى قبر أبي وأزُفُّ له تلك البُشرى التي لا أجد أنها سارَّة!

أخبرني الزملاء في أول أيامي بالمكتب أن الأمر ليس محض وظيفةٍ روتينية كما أظنّ، فالدولة تسعى لتفعيل دور هذا المكتب مؤخَّرا بعد أن كشفت التقارير العلمية أن لكل خللٍ أصاب المجتمع سببٌ كامنٌ في نفوس أفراده وظروفهم.. في أساليب حياتهم وتعاملاتهم وتعاطيهم مع الآخرين. وتفاصيل أُخرى أسهبوا في شرحها فلم أُصغِ إليهم.. هو بالطبع كلامٌ نمطيّ يُكدِّسون به رؤوسهم ليتوهَّموا عظمة دورهم النمطيّ البائس.

قمت مرغمًا. اغتسلت وارتديت واحدةً من البِزَّات الجديدة التي كُنت قد اشتريتها خصَّيصا لهذا العمل المُميّز الذي سيُنقذ المُجتمع؛ بقيمةٍ فاقت إجمالي ما أتقاضاه منه في ستّة أشهر! نظرت إلى ذقني فوجدتها مُناسبة ولا تحتاج لتهذيب. عطري كان في جيب السترة كالعادة؛ كيلا أنسى التعطُّر به كبعض أيامي الأولى.

حسنًا... أنا جاهزٌ للنزول.

انطلقت بالسيارة وقناعاتي تُحاول كبح جماحي والحَيْدَ بي عن طريق المكتب، لأعرج على المقهى أو أبحث عن صديقٍ من المُقرّبين الذين يمرُّون على أعمالهم صباحًا للتوقيع، ثم يتسلّلوا بعد ذلك للتسكُّع في الطُرُقات.

طالعتُ هاتفي في تلك الإشارة التي أعلم أنها ستمتدّ. لم يكن على صفحتي الشخصية ثمة أخبار مهمَّة أو هادفة. فتذكَّرت أمِّي أيضًا. كنت قد سألتها ذلك اليوم عن تلك الحِكَم المُمتعة التي تظهر على هاتفها دون هاتفي، فأخبرتني بأن الهاتف مرآةُ صاحبه، فإن صلح صاحبه بثّ موادَّ صالحة، وإن خبث تدفّقت على شاشته الخبائث.

فهمتُ بالطبع حديثها، وأدركتُ أسباب خُبْثِ هاتفي، لكنني وبكل صراحة لم أسعَ لتطهيره من هذا الخُبث!

استقبلني زملائي بالمكتب بابتساماتهم الرسمية المُعتادة، التي تُخفي وراءها - فضلًا عن الوخم الذي ملأ ابتسامتي - ضغينةً من زميل، أو رهبةً من رئيسٍ سيطلب تقريرًا تراخى في إعداده أو تبريرًا لتأخيرٍ في الحضور، أو قلقًا على ابنٍ يرقد محمومًا بالبيت أو بنتٍ فاتها موعد المدرسة... أو رُبّما لا شيء ممّا تقدّم.

مررت بأكرم.. إنه زميل دراسة. كان كلانا من أوائل الكلية، لكنه التحق بالعمل منذ التخرُّج، ثم حصل أثناء ذلك على درجة الماجستير أيضًا، بينما تلكَّأت أنا في تسلُّم العمل بحُجَّة عدم اقتناعي به، حتى صرت موظَّفا في القسم الذي يرأسه. استحضرتُ حينها جميع حِكَم أُمّي البديعة لتهدأ حُرقتي من هذا الوضع الذي ما كُنت لأقبل به في الظروف العادية، هو أيضًا كان يُحاول تخفيف شذوذ الأمر بلباقته وحسن تعامله ووُدِّه.

جلست معه بغرفته بضع دقائق قدّم لي خلالها مشروبًا طلب مني بابتسامةٍ مازحةٍ - وككل يوم - ألّا أعتاده، فأنا ما عدت زائرًا للمكانِ كذي قبل، ثم نبَّهني أن أمُرَّ على سكرتيرة القسم لتسلُّم بعض

الملفات التي قام بالتأشير باسمي عليها، وحثّني أن أَقدِّم التقارير اللازمة بشأنها في أسرع وقت.

عند مغادرتي قام أكرم للسير معي حتى وصلنا لباب غرفته، ثم هَمَسَ لي بودّ: (عليك بذل المزيد من الجُهد، فنهاية فترة الاختبار قد أزِفَت. أداؤك في الفترة الماضية كان متواضعًا ولا يَرْقى لتثبيتك بالوظيفة يا رائف).

- ولكنك تعلم يا أكرم ظروف البيت منذ وفاة أبي والتزامي وانشغالي برعاية أُمِّي، تعلم أنني تكفَّلت بكل ترتيبات زواج سماح شقيقتي الذي تمَّ قبل شهرين. أنت تعلم كل ظروفي.

- وأنت تعلم أيضًا أن العمل لا شأن له بكل ما ذكرتَ. علينا أن نُتقنه رغم أيِّ ظروف.

- كيف لا يُقدِّر العملُ ظروفَ العاملين؟ هذا أمر مُخزٍ.

- ربّما يتحمَّل العمل ظروفنا الطارئة ويُساندنا فيها. أمَّا الظروف الطبيعية المُمتدّة فعلينا التكيُّف عليها ومراعاة عدم تأثيرها على أعمالنا. ورغم ذلك... فلعلّك لاحظت أنني لم أُثقل عليك خلال تلك الظروف التي ذكرتَها حتى مرَّت بسلام، وهذا ما يُشعرني بالقلق! أخشى أن سلوكي هذا وَضَعَكَ الآن في مأزق! فمطلوب منك إنجاز ملفات التقييم في وقتٍ أراه ضيِّقًا ومحكومًا.

- حسنًا يا أكرم... سأرى ما عليَّ فعله.

ثم انصرفتُ وقد شعرت بأن العدّ التنازُليّ لبقائي بهذا المكتب قد بدأ.

تسلَّمتُ الملفات من السكرتيرة تحت وطأة إكراهٍ وتهديدٍ واريتهما خلف زهرةٍ التقطتها من كوبٍ موضوعٍ على مكتبها، ثم أعدت تقديمها لها بابتسامةٍ مُعجبٍ لم أتمكّن من حبكها، فأخبرتني بحُمرةِ مَن أخجلها الغزل بأن أرقام التواصل وعناوين الحالات المطلوب دراستها موجودة على غُلاف كل ملفٍ أو ضمن محتوياته، شكرتها ثم تحرّكت قاصدًا غرفتي لأجد عدة مُكالمات فائتة على هاتفي الذي كنت قد نسيته على المكتب. كانت كلُّها واردة من شقيقتي سماح. بالطبع تريد أن تشكو لي زوجها المُشاكس الخائن. ذلك الذئب البشري الذي يقضي الليالي في مخاطبة صديقاته القدامى وزميلات العمل عبر برامج التواصل الاجتماعي. نحَّيت الهاتف جانبًا وقد ارتسم الغضب على وجهي، فقد طلبت منها مرارًا وتكرارًا ألّا تتّصل بي أثناء ساعات العمل. هذا من حيث المبدأ.

أمّا من حيث الموضوع؛ فكُنت لا أجد ما أُساعدها به. أنا أرى الأمر عاديًّا وبسيطًا. عليها أن تعتاد هذه التكنولوجيا الحديثة وسحرها وتأثيراتها علينا نحن معشر الذكور، وأن تدعو الله أن يقتصر الأمر على ذلك ولا يتجاوزه، وأن يكتفي زوجها بهذا القدر السائغ المُتواضع من الخيانة! كُنت لأفعل مثله لو وجدتُ من زميلات العمل من تستحقّ ذلك!

دخل نادل المقصف ليبدأ في صبِّ القهوة في فنجانٍ كان وحيدًا على صحفته العريضة، يُعاني غربتي ذاتها، فتعمَّدت فتح غلاف الملف الأول وأنهمك في قراءته لأظهر أمامه بمظهر المُوظّف المُجتهد الذي ما زلت لا أُتقنه، وقد خمَّنت أن يكون عينًا يستقي من خلالها أكرم ما يفعله الموظّفون داخل مكاتبهم. هذا ما أسمعه عن حال المُوظّفين.

وضع القهوة أمامي فشكرته وأنا مُنشغل بالملف. كان بخصوص دعوى حضانة أحالتها محكمة الأحوال الشخصية للمكتب. زوج طلَّق زوجته قبل سنتين، ويرغب في حضانة ابنه ذي الثمانية أعوام. المحكمة طلبت عمل بحثٍ اجتماعيٍّ عن وضع الطفل وظروف والديه. كُتب على الغلاف من الخارج أن القانون يضمن للوالدة حضانة ابنها الذكر حتى خمسة عشر عامًا، لكن للوالد انتزاع حضانة الابن قبل بلوغ هذه السن متى أثبت أن الوالدة غير أهلٍ لتلك الحضانة، وذلك إذا ثبت عدم أمانتها وقدرتها على رعاية الطفل، أو صدر حكم بإدانتها في إحدى جرائم الشرف، أو امتهنت عملًا يُخالف الدين أو القانون أو الآداب العامة، أو قامت بتغيير دينها، أو امتنعت عن تنفيذ قرار الرؤية أو الاستضافة الذي قرّره القانون للوالد دون عذر مقبول. وأخيرًا إذا تزوّجت الوالدة. هذا ما كُتب على الغلاف.

إذًا؛ مطلوب مني وضع تقرير يؤكّد عدم صلاحية الوالدة لانطباق إحدى الحالات المذكورة عليها، مع التوصية بالاستجابة لطلب الوالد. أين المُشكلة وقد ذَكَرَتْ صحيفة الدعوى أسباب طلب الوالد للحضانة، كما عجَّت بتلميحاتٍ كثيرةٍ لسوء سلوك الوالدة. الموضوع بسيط وإنشائي. بالتأكيد انطبقت إحدى هذه الحالات عليها، وإلا ما ادَّعى الوالد ذلك في دعوى قضائية!

الملف الثاني كان بخصوص محاولة شابٍّ بائس الانتحار تحت تأثير المُخدّر. يا إلهي! أشعر بتصاعُد الحالات. هذا الموضوع يبدو مُعقَّدًا بعض الشيء. كيف سأتعامل مع ذلك المُدمن العربيد وأتفهّم منه ما لم تتفهّمه الشرطة أو النيابة! حسنًا. هم أحالوا الأمر لنا بادِّعاء احتمال أن يكون ضحية، لكنني أرى غير ذلك، وسأوصي بتحويله لمستشفى الأمراض العقلية للكشف عليه أولًا، فلا داعي للمغامرة مع شخصٍ خطيرٍ كهذا.

الملف الثالث كان بشأن طلبٍ تقدّمت به إحدى المدارس الخاصَّة، موضوعه جنوح تلميذ بالصف الثاني الإعدادي واعتياده التسلُّل من المدرسة. كُتِبَ بورقة التحويل أن جهود المدرسة والأسرة قد أخفقت في إعادة تأهيله وضبط سلوكه. مطلوب تقرير اجتماعي عن حالته. ما هذا العبث؟! الحالات تعود فتتضاءل حتى تكاد تهوي من فرط بساطتها، والداي فرضا عليَّ الكلية والماجستير دون أن أنطق! بل وفرضا عليَّ هذا العمل أيضًا! أتعجز هذه المدرسة وتلك الأسرة عن ضبط سلوك طفلٍ لم يبلغ خمسة عشر عامًا من عمره؟! هُنا ستكون توصيتي بضرورة ضمِّه لأُسرتنا العظيمة، ليُكرَهَ على كل شيء!

ثمة ملف رابع عن الهجرة غير الشرعية، اكتشفت أنه مُسابقة على مستوى المكاتب المُماثلة لأفضل بحث سيتناول أسباب الهجرة غير الشرعية. أكرم كتب لي على الغلاف: (رجاء أن تُشارك يا رائف. فأنا أعلم قُدراتك وأُراهن على فوزك بالمركز الأول في هذه المسابقة). إذًا فالأمر اختياري!

ابتسمت ساخرًا وأنا أُردّد في نفسي: أنت تمزح يا صديقي. طموحاتك بلغت عنان السماء. أنا

بالكاد سأسطر لك التقارير الثلاث المطلوبة قبل ختام الشهر المُتبقِّي لي من فترة الاختبار، والذي ما كُنت لأبلغه لولا رأفتكم وسعة صدركم! هذا بخلاف أنني لا أعمل إلا تحت سوط السُّخرة والإجبار. هذا ما جُبِلْتُ عليه في حياتي! لقد أخطأتَ في تخييري! وسأزيدك من الشعر بيتًا؛ أتعلم أنني لو سنحت لي الفرصة من قبل لكُنت أول المُهاجرين غير الشرعيين؟!

أجبت اتصال سماح هذه المرَّة بعد أن قطع أفكاري. صرخت فيها: (حذّرتك من قبل. أوقفي اتصالاتك المُتكرّرة عليَّ أثناء عملي).

- لقد جُنَّ جُنوني يا رائف من تصرّفاته. لم أعد أحتمل.

- تحتملين ماذا؟ الموضوع بسيط ولا يستحقُّ كل هذا الضجيج. أحمد صديقي قبل أن يكون زوجك. أعلم كم هو شهم ومستقيم وناجح في عمله.

- هو ليس كذلك...

- (مُقاطعًا) أنتما لا تزالان في شهور الزواج الأولى.. قد يكون الأمر عادةً اعتادها قبل الزواج وسيتخلّص منها تدريجيًّا. درب من دروب التسلية يا سماح. لعلَّ لديه احتياجًا لم يستوفِهِ منك! مشاعر يفتقدها منك فبحث عنها عند غيرك.

صَرَخَتْ سماح بحُرقة شديدة قائلةً: (أيُّ احتياج وأيُّ مشاعر تُبرِّر له طلبها من غيري يا رائف؟ هل أنت جاد؟!)

- حسنًا. أنا لست مُتزوَّجا لأفهم. فقط حاولي استيعاب طلبات زوجك ولبِّي رغباته ولو لم تكن مُقنعة لك؛ كيلا يلجأ لبديل. هذا ما أعرفه.

- أنت لا تعرف شيئًا. إنها نزوات حقيرة...

- (مُقاطعًا) لا بأس. من واجبك أيضًا أن تُمرّري له بعض الهفوات.. أن تتقبّلي له بعض العيوب. الكمال لله وحده.

- ألن تنصفني مرَّة يا رائف؟ ألن تقف بجانبي؟

- أرجوكِ يا سماح. أنا في العمل. كل ما أستطيع نُصحك به هو ألّا تُحكمي الخناق على أحمد؛ كيلا تفقديه، أنتما لتوِّكما تستكشفان أجواء الزواج معًا. لا داعي لتصعيد الأمور.

وأنهيتُ المكالمة وقد تكدَّر مزاجي.

مرَّت ساعات العمل بطيئة وأنا جالس في غرفة مكتبي دون أن أفعل شيئًا، فالتقطت سُترتي وحملت ملفاتي وغادرت المبنى لأقصد سيارتي التي لفحتها الشمس فأضحت كالفُرْن المُحَمَّى الذي تلقَّف لتوِّه جدْيًا جاهزًا للتسوية دخل بإرادته وأغلق بابه خلفه ليبدأ على الفور في لفظ سمنه المُنصهر. خفضتُ زُجاج نوافذ السيارة سريعًا لأحتفظ بسمني، ثم تحرَّكت ساخطًا مُتجاهلًا ذلك العاطل الذي كان يوجِّهني للخروج من الموقف بحركات من يسحب طائرةً من مربضها إلى مَدرج الإقلاع. كان يرتدي ذات سُترته الفسفورية الخضراء وإن اختلفت ملامح وجهيهما.

وصلت للبيت فألقيت التحية على أمِّي الواقفة في مطبخها منذ سنواتٍ لم أَحصِها، تقفز بين القدور والصحون لتضع الطعام وتذرَّ البهارات عليه بأصابع مايسترو ينثر مشاعره على أعضاء فرقته الأوركسترالية ليُخرج أبدع ما لديهم.. كان الغداء شهيًّا كما اعتدتُ في الشهور الأخيرة، فقبل تسلُّمي للعمل كنتُ أستيقظ متأخِّرا. بالكاد أتناول إفطاري وأُمِّي تُنهي تسوية الغداء. فأتناول هذا الأخير عند الغروب لأجده قد بَرُد وفقد مذاقه. لكن منذ أن انتظمت في العمل وأنا أُفطر مُبكِّرا، فأعود من العمل مُتلهِّفا لتناول الغداء. اكتشفت منذ ذلك الحين أن للغداء طعمًا آخر.

استلقيتُ على فراشي لساعتين لا أعلم القدر الذي غفوته فعليًّا منهما، فما زلت لا أستوعب تلك القيلولة التي كُنت في غنى عنها قبل انتظامي في العمل. اتّصلت بأكرم فور أن اغتسلت وأكّدت عليه موعد لقائنا في المقهى كما اعتدنا منذ سنوات. بدَّلت ملابسي والتقطت الملفات التي أردتُ مناقشته فيها؛ ليُرشدني لأسرع السُّبُل لإنجازها، ثم انطلقت.

وصلت قبل وصوله كالعادة. احتسيتُ كوبًا مُضاعفًا من القهوة وأنا أُتابع مُباراةً مُسجَّلة من الدوري الإنجليزي لكرة القدم كانت تعرضها الشاشة الضخمة. شردتُ في تلك الملحمة الكروية الاحترافية التي لا أعلم متى سيفُكُّ لاعبونا شفرتها ويكشفون سرَّها لنصل إلى ذات المُستوى. دائمًا ما نعزو قوَّة الغرب الاقتصادية وقدراتهم العسكرية إلى تفوُّقهم التكنولوجيّ، لكن هذه رياضة! لا تكنولوجيا فيها ولا نُظم تشغيل إلكترونية! بالتأكيد أن أولئك اللاعبين من لحم ودم وليسوا روبوتات آلية مُبرمجة! لا أعلم سببًا لأدائنا الهزيل المُخزي مُقارنةً بأدائهم؟

أفزعني كفٌّ أكرم الذي هبط على كتفي بغتةً وهو يسألني عن نتيجة المُباراة. هو لم يكن من المُهتمِّين يومًا بكرة القدم. ابتسمت له وأخبرته أنها مُباراة مُسجّلة وليست منقولة على الهواء، فابتسم وطلب من النادل قهوةً ثم جلس شاردًا.

لمحت في عينيه القلق.. ثمة ما يُريد البوح به لكنه مُتردّد، تمنيت لو كان تردده هذا قد تملَّكه وقت أن أحال عليَّ تلك الملفات القابعة على الطاولة تُتابع المُباراة بفهمٍ لا يُجاوز فهمه لها. كُنت حينئذٍ لأُقدّر تردُّده. شردت في علاقتنا المُمتدّة. لقد تعارفنا في أول سنوات الجامعة. كان كلانا يبحث عن موقعه للجلوس في الصف الأول بمُدرَّج المُحاضرات المُكتظ. تجاورنا عدة مرات. ومع الوقت صار أحدنا يحجز مساحةً كان يُشغلها بجلسةٍ يُباعِدُ فيها بين ساقيه قدر ما تسمح له لياقته، ثم يعود فيضُمهما فور وصول الآخر. بعدها بدأنا نتبادل الزيارات حتى توطّدت العلاقة وامتدَّت لأُسرتينا.

بادرني قائلًا: (عليَّنا التوقّف عن تلك المُقابلات حتى تنتهي فترة اختبارك. لا أُريد أن يربطوا اجتيازك لها بصداقتنا). امتقع وجهي مما قاله، فأجبته باستنكار: (ما هذا العبث؟ ترك الوظيفة أهون عليَّ مما تقوله).

- توقَّفْ عن المُزاح يا رائف. ما أطلبه منك سيكون في صالحنا.

- أنا جادٌّ بالمناسبة ولا أمزح! لن أقبل الوظيفة على حساب صداقتنا!
- بل الوظيفة أولى لك من كل شيء. عليك إعادة حساباتك لأجلها.
- هل أنت في كامل وعيك يا....
- (مُقاطعًا بحدّة) لقد انتهى الأمر. التزم بما طلبتُه منك.

جلستُ صامتًا مذهولًا من حسمه للنقاش بتلك الطريقة، وبنبرة رئيس القسم التي ما اعتدتها منه إلا في الصباح.. فوجئت به يدفع للنادل حساب ما شربه وهو يُردِّد: (أرجوك أن تُنهي الملفات التي أحلتُها لك بدقّة وإتقان. أنا حريصٌ على ألّا تفقد الوظيفة. سينفطر قلب والدتك إن حدث ذلك. تذكَّرْ أيضًا حرص والدك - رحمه الله - ورغبته في أن تلتحق بها. إنها فرصتك الأخيرة).

قال ذلك ثم انصرف، لتقفز لذهني صورة تلك الفتاة التي كُنت أحبُّها لسنوات طويلة. اسمُها هَمْس. كانت من جيراننا بالحيِّ. جمعنا حبٌّ عُذريٌّ صادقٌ ما بادلته لغيرها منذ افترقنا قبل ثمانية أشهرٍ أحصيتهم عدًّا. كنَّا نعتزم الزواج بمجرّد أن ألتحق بعملٍ تُناسب مواصفاته رغباتي، وما كنت أعلم مواصفات أيّ عملٍ صادفته ولا كُنتُ أدري حقيقة رغباتي. انتظرتني كثيرًا حتى ظنَّت استخفافي بالأمر، فطلبت مني مُقابلتها. التقينا بهذا المقهى وقد ارتسم على وجهها الفزع، وأخبرتني بأن شخصًا تقدَّم لخطبتها وحاز قبول والديها وإعجابهما، وأنها حاوَلَت التنصُّل وابتداع الأسباب لرفضه فأخفَقَتْ. أبديت غضبي وثورتي العارمة رغم شكِّي في أن هذه القصّة من وحي خيالها. بادرتها باستعدادي لأن أذهب لوالديها وأطلب خطبتها، فاسْتَبْعَدَت نجاح هذه المُحاولة لكوني عاطلًا. أخبرتها بأن الأمر محض خِطبة، لكنها أكّدت ثقتها من رفض والديها لي ما دُمت مُضربًا عن العمل. بقيت يومها جالسًا بصمتٍ ولم أُبدِ أي نوايا أو استعداد للالتحاق بعمل، حتى وجدتُها تستدعي النادل، ثم دفعت حسابها وانصرفت، بينما ظللتُ أنا جالسًا في صمت. تمامًا كما فعل أكرم.

عادةً ما تكون تلك هي النهايات التي تفرضها علينا مُفترقات الطرق. نهايات صامتة تنطفئ على ناصيتها حرارة الحديث فيفقد لزومه. تفترق الأعين، وتفتر المشاعر، ليبدأ أحد طرفيها بالانسحاب مُنفكًّا من ذلك الارتباط، مُعلنًا للآخر الاستغناء عنه، والذي يُبرهن عليه من خلال مبادرته بدفع قيمة ما شربَهُ في الجلسة الأخيرة!

لقد قرَّرت لتوّي تسمية هذ المقهى بمقهى الفِراق!

زفرتُ زفرة عجزٍ شعرت به، ثم نظرت للملفات التي كانت أمامي بازدراء، وقد ذهبت أحلامي في أن أُنجز أحدها في معية أكرم سُدىً!

طلبت كوبًا من الشاي طال انتظاري له، لأنتبه لأول مرَّة إلى تكرار الأمر معي حين أكون بمُفردي! وكأن العامل كان يهمُّ بإحضار الطلبات في وجود أكرم فقط. وخذ الأمر كرامتي، فقمت وتركت حساب القهوة التي شربتها على الطاولة مجردًا من أي إكرامية، مُعلنًا للنادل بدوري

استغنائي عنه، ثم التقطّت ملفاتي وانصرفت.

لم أجد حماسًا للعودة للبيت، فدُرتُ بسيارتي وأنا أهيم في ذكريات ذلك الحبِّ القديم الذي أضعته بسبب عبثي وتردُّدي. ربما لو سارت الأمور بصورةٍ طبيعية لكُنت اليوم أعول طفلين كأكرم. أهرع للبيت لأحضنهما وأُلاعبهما كما يفعل هو! كان أبي ليسعد بذلك كثيرًا، لكنه رحل. أُمّي أيضًا تحُثُّني على ذلك فأقول لها إنني لن أقبل بفتاة أقلَّ منها جمالًا، فتُداعبني قائلةً إنني لن أجد، فأُنافقُها مؤكدًا قولها لأُنهي النقاش.

سرتُ بغير هدىً لأنخرط مع تلك السيارات التي تجوب طُرُق المدينة ليلًا. هم فريقٌ من العاطلين أنتمي بكل فخرٍ إليهم. أعرفهم جيدًا. منهم من علم أن للّيل حُلْمًا جميلًا لم يُراوده فراحٍ يبحث عنه. ومنهم من كان يلتمس في هدوئه وصمتِهِ راحةً لصدرِهِ الذي لم يهدأ اختلاجُهُ أو يحلُّ عليه يومًا ليْل.

منهم من ينشد في الليل ملاذًا ليأوي لمشاعره القديمة، ومنهم من يجد فيه فرصةً لتفريغ طاقة يومٍ مشحونٍ في القيادة السريعة المُتهوّرة.. منهم من كان يسعى للفت انتباه الآخرين لوجوده.. منهم من ضاق صدره بتخطيط الآخرين لحياته واتّخاذهم لقراراته فما كان يشعر بنفسه قائدًا إلّا حين يجلس على هذا المقعد... هؤلاء كُلُّهم أنا!

تملّكني الصُّداع، فاستدرت عند أول مُنْحَنى بسرعتي العالية لأُحدث صريرًا عاليًا التفت إليه العابرون، قبل أن أسلك طريقي عائدًا للبيت.. كانت أُمّي نائمةً حين وصلتُ، فجلستُ أتصفّح برامج هاتفي وألعابه حتى غفوت.

أوقفت رنين التنبيه بهاتفي لأنتفض مع صوت فتح أُمّي لباب غُرفتي، والتي أبت أن تتصرف قبل أن تشرعه على مِصْراعيه كيلا أُعاود النوم. كان صوت المذياع عاليًا ومُزعجا بدّد مُحاولاتي لاختلاس مزيدٍ من الغفوة، فجلستُ على الفراش مُحاولًا استجماع قواي وصوتها لا يهدأ كلّما مرَّت من أمام الغرفة. تارةً تُحذِّرُني من العودة للنوم، وتارةً أُخرى تسألني عن الصنف الذي أُريد تناوله على الإفطار. نظرت جانبي ساخرًا من أن يتم تخييري في شيءٍ من شؤون حياتي! كدت أن أُقسم لها بكل ثقة أن هذا الخيار أيضًا لن يُستجاب له، لكنني تراجعت، وصِحْتُ بدلًا من ذلك بتهكُّم طالبًا منها أن تُحضر لي قائمة الطعام لأختار.

اغتسلتُ وتناولتُ إفطاري في المطبخ وأنا أحكي لها عمّا فعله أكرم في المقهى. للأسف أيَّدتْ تصرُّفه. كانت ترى أن علينا الانتباه للعمل والتقليل من جلسات المقاهي والكافتيريات التي لا تُناسب إلّا العاطلين، وطلبت مني الاجتهاد في العمل وطاعة رؤسائي، فعلمت أنها كعادتها لن تنصُرني في أي شيء، بالذات إذا تعلّق الأمر بأكرم.

ارتديت ملابسي وانطلقت للعمل. لم أمرَّ هذه المرّة بمكتب أكرم. ظللت أتنقَّل بين الزُملاء؛ لسؤالهم عن سبيلٍ لإنهاء تلك الملفات العقيمة، فكان ردُّهم المتواتر أن أعمل على زيارة كل حالة منها لأستكشف الأمر بنفسي. قدَّموا لي صورًا لبعض التقارير التي أعدُّوها سابقًا لأستعين بها في كتابة تقاريري، فعدتُ لمكتبي وجلستُ في ضجر. حضر نادل المقصف لتقديم القهوة فأدرت وجهي تجاه النافذة الكائنة خلف ظهري ورفعت قدميَّ ووضعتهما فوق مكتبي بامتعاضٍ وعصيانٍ تمنيت أن يُبلغهما لأكرم.

اتَّصَلَت بي سماح كعهدها فلم أُجب. لقد قرّرت أن أُلقّنها درسًا في احترام رغباتي. أردت أيضًا أن أتركها لتعتمد على نفسها. عليها قبول حياتها التي اختارتها، فها أنا ذا قد رضيت بحياةٍ لم أخترها!

بدأت أقرأ الملفات مرة تلو مرّة بعجزٍ وقلّة حيلة. توهّمت أول الأمر أنني سأتمكّن من إنهاء أحدها في جلستي، ودون أن أضطرَّ للانتقال لزيارة أصحابها كما نصحني الزملاء، لكن الموضوع سيبدو فجًّا نسبةً لكل تلك البيانات والأوصاف المذكورة في نماذج التقارير التي أعطوها لي. ردّدت في نفسي: (الموضوع بسيط) عدة مرّات لأُهوّن الأمر على نفسي، لكنها لم تُلهمني بأية حلول، فلجأت بعدها للعبارة الشهيرة: (على قدر راتبهم) آملًا أن تُزوِّدني بمفعولها السحري الذي سمعت عنه كثيرًا من أصدقائي، بيد أن مفعولها لم يَسْرِ كما أَمِلْتُ.

بعد يأسٍ تملَّكني، عزمتُ أن أبدأ الليلة بزيارة إحدى الحالات لأستكشف الأمر، اخترت ملف ذلك الطفل الذي يرغب والده في حضانته. طالعت بيانات والده المكتوبة على الغلاف. كان يعمل

مهندسًا استشاريًّا. المراسلة والتقابل كانا مُرشّحين على عنوان مكتبه المُدوَّن في الأوراق. موعد الزيارة المُقترح كان مساءً. التقطتُ هاتفي واتُّصلت به عارضًا زيارته الليلة، فرحّب بي ووعدني بأن يكون في انتظاري في تمام الساعة الخامسة مساءً.

نظرت في الساعة. كان باقيًا على موعد المُغادرة ساعة ونصف، فدخلت لتصفُّح بعض مواقع التواصل الاجتماعيّ لأقتل ذلك الوقت الرتيب. أُعلّق لبعض الأصدقاء على منشوراتهم، أو أُثبت مُروري على بعضها برمزٍ من تلك الرموز التي حَصَرَتْها لنا تلك المواقع مُعبِّرة عن بضعة مشاعر ارتأت كفايتها لنا، ولتذهب باقي مشاعرنا التي تجاهلتها إلى الجحيم.

عُدت للبيت مُكبّلًا بذلك الالتزام الذي فرضْتُهُ على نفسي. والذي سأقتطع له من وقت راحتي الخاص. الوقت الذي اعتدت قضاءه على المقهى أو في زيارة أصدقائي المُتسكّعين. أو في رحلة السيارة تلك.

تناولت الغذاء ثم دلفت لغرفتي وأنا ناقم. كدت ألتقط الملف وأتّصل بالرجل لأعتذر له عن الزيارة، لكنني تردّدت دون أن أفطن لسبب.

التقطتُ كوبًا من الشاي أعدّته لي أُمّي ووضعته على مكتبي وهي تدعو لي قائلةً: (ستُفرج بإذن الله) ثم انْصَرَفَتْ. لم أفهم مقصدها، لكنها كثيرًا ما ألقت لي بكلماتها التي كانت تُصيب أزَمَاتي في مقتل. رغم أني لم أكن أُفصح لها بما يدور في عقلي!

جلست على المكتب وفتحت ذلك الملف. التقطتُ صورة الطفل منه وتأمّلتها لبُرهة ثم أعدتها وبدأت أقرأ ذلك المُلخَّص الموضوع لحالة أُسرته. صحيفة الدعوى أيضًا أوحت لي بصراعٍ امتدَّ بين والديه وتصاعد لدده. ظروفٌ يُرثى لها. أصبح الطفل كورقةٍ تخلّت عنها شجرتها قبل أن يكتمل نُمُوُّها، لتسقط في نقطة التقاء تيَّارين شديدين ومُتعارضين من الرياح، فتعلَّقت في الهواء مُتخبِّطةً مرتعشةً تفتقر إلى المرسى والمقرّ.

أنهيت مشروبي لأبدأ على الفور في إبدال ملابسي. التقطت متعلّقاتي وعبرت ردهة المنزل قفزًا على أطراف أصابعي كي لا أُزعج أُمي النائمة. استقللتُ سيارتي وتحرّكت إلى العنوان المكتوب على أوراقي وأنا لا أعلم ما ستحمله الزيارة لي من مُفاجآت.

استغرق الوصول إلى المكتب نحو نصف ساعة. كان المكتب فخمًا وبه عدد لا بأس به من الموظّفين نسبةً إلى كونها الفترة الليلية. قابلتُ والد الطفل بعد انتظارٍ طال لربع الساعة، أدخلوني بعدها لغرفته الواسعة ذات الأثاث الوثير. جلست على أريكةٍ وجّهني إليها ليجلس أمامي بخنوعٍ لم أستوعبه. وقبل أن أبدأ حديثي كان النادل يُقدّم لي عصيرًا طازجًا قبلته منه بامتنان ووضعته على الطاولة. فتحت الملف وأنا لا أعلمُ من أين أبدأ حديثي! الأمر جديدٌ عليَّ! انسحب لساني حتى كدت أعضُّ عليه من بلاهة ما قاله! إذ بعد كل هذه الاتصالات والاستقبال والترحيب بادر لساني سائلًا: (حضرتك المهندس مدحت؟) فأومأ برأسه بعلامة الإيجاب قائلًا: (وكلّي آذانٌ صاغية).

- أردت أن أسمع منك أسباب طلب حضانة ابنكم شريف ببعض التفصيل.
- أعتقد يا أستاذ...
- رائف.
- أعتقد يا أستاذ رائف أن المُحامي ذكر تلك الأسباب في صحيفة الدعوى.

ساورني شعور بعدم الثقة بالنفس لأول وهلة، فتجاوزته بثقة إضافية استعرتها من خنوعه لأقول له: (نعم، لكن البحث الاجتماعي يجب أن يتجاوز حدود تلك الألفاظ. أنا بحاجة للاستماع لتفاصيل ما ورد بالصحيفة، والتي قرأتها بالفعل جيِّدا).

- تفاصيل حياة شريف؟
- بل تفاصيل حياتكما. أنت ووالدته. منذ زواجكما إن أمكن. تلك الظروف التي تفوح روائحها الخبيثة من أوراق الملف.

تجرَّع الرجل بعض الماء وهو ينظر لزاوية مكتبه باحثًا عن بدايةٍ مُناسبةٍ لحديثه. دخلت سكرتيرته الحسناء لعرض أوراقٍ عليه، فصاح بحسم طالبًا منها الانصراف، وحذَّرها من أن تسمح لأي شخصٍ بالدخول قبل أن يُصرِّح لها بذلك.

التقط أنفاس غضبه وهو يتَّكئ بظهره على الأريكة، ثم بدأ حديثه قائلًا: (تزوَّجتها منذ عشر سنوات. كانت قصّة حب ممتدة منذ أيام الجامعة. الحب كما تعلم خدعة كبيرة، لم يُمكّنني من رؤية عيوبها، أو من المُحتمل أنني رأيتها وتجاوزتها آملًا أن أعتادها وأقبلها بمرور الوقت. سافرنا معًا بعد الزواج مباشرةً حيث كنت أعمل بإحدى الدول العربية. بقينا هناك خمس سنواتٍ أنجبنا في الثانية منها شريف. سعادتنا كانت غامرة واهتمامنا به كان بالغًا. تعاهدنا على أن نُوفّر له كل ما يتمنّاه، لكنني تفاجأت فور عودتنا واستقرارنا بركود سوق العمل، كنت قد أنفقت كل ما ادّخرته في شراء هذا المكتب وتأثيثه بأثاثٍ كان أقل مستوىً ممّا تراه الآن طبعًا، آملًا أن تنهمر عليَّ العقود والصفقات، لكن لم تسِر الأمور كما تمنيت. عزمت على السفر مرّة أخرى. طلبت منها مشاركتي الرحلة، لكنها رفضت وأصرّت على البقاء! بررت ذلك برغبتها في أن ينشأ شريف في بلده ووسط عائلته الكبيرة، فوافقت على مضض وسافرت وحدي. كُنت أطمئنُّ عليهما صباحًا ومساءً. لكن نبرة صوتها بدأت تُريبني).

تنهَّد المهندس مدحت وتجرَّع ما تبقَّى من كوب الماء، فرشفت رشقةً من العصير وأنا أُتابعه بعيني باهتمام، فهزَّ رأسه بألم مُردفًا: (يبدو أن البعيدَ عن العين بالفعل بعيدٌ عن القلب. تقلّصت مُدد مُكالماتنا إلى حدٍّ لم أتوقّعه. تعلم أستاذ رائف أن للغربة شيطانًا لا يهدأ. يُوسْوس في رأس المُغترب حتى يكاد يشكُّ في نفسه إن واتته المُناسَبة لذلك. بدأ خيالي يُهيّئ لي أن زوجتي قد انشغلت بغيري، بأن يلفت نظري إلى نبرة صوتها التي بردت بعد حرارةٍ كنت أعتادها، وإلى سعادةٍ خلت أنها لن تغمرها وأنا بعيدٌ عنها تارةً. أو إلى حركةٍ غريبةٍ أو صوتٍ صدر بجوارها فلم تُبرِّره تارةً أُخرى.

انقبض قلبي، فاتّصلت بصديقٍ وكلّفته بمراقبتها، لأكتشف الكارثة).

وضع كفَّيه على وجهه بعصبية وتوتّر كنت أشعرهما وأتفهّم كل مُكوناتهما. صعبةٌ تلك اللحظات التي عاشها هذا الرجل. سافر واثقًا في حبيبته وزوجته وأم ولده، باحثًا عن الستر، فعاد على فاجعة الخيانة والفضيحة.

لاحظت طول صمته فبادرته بلا تفكير: (في انتظارك سيد مدحت)، فرفع رأسه بعينٍ تلألأ الدمع فيها قائلًا: (كما تفهم.. علمت أنها تخونني مع أحد أقاربها. كانت تترك طفلنا الرضيع مع أُمّها وتذهب له و...). انحشرت كلماته في حلقه، ثم تنهَّد تنهيدةً خشيتُ أن روحه ستستغلُّ براحها لمُغادرة جسده، لكنه استطرد قائلًا: (لم أحتمل الوضع. طلّقتها قبل حتى أن أعود إلى أرض الوطن. أرسلت لها إشعار الطلاق من خلال السفارة في ذات يوم اكتشافي لخيانتها. وكما ترى؛ عليَّ الآن أن أُخلِّص شريف من براثنها وأحميه من سمومها).

كان حديث الرجل واضحًا بما يكفي، والنهاية كانت مُتوقّعة، لكنني آثرت الاستماع للقصَّة من باب الفضول وتبرير الزيارة أكثر منه بحثًا للحالة التي كانت سطور تقريرها تُداعب عَيْنَيَّ منذ أمسكت بالملف. هذا الرجل الصالح المُقتدر أولى برعاية ابنه بالطبع.

تجرَّعت ما تبقَّى من العصير وأنا أهمُّ بالنهوض للمغادرة، وأعربت له عن أسفى لما لاقاه من انتهاكٍ ما كان يستحقّه. سألني إن كان التقرير سيكون في صالحه، فأومأت برأسي بعلامة الإيجاب دون أن أنطق. تذكّرت فورًا أن ذلك كان محظورًا عليَّ، لكن لا بأس! لقد تورَّطت فيه. لا مانع من أن أُطمئن الرجل وأُهدِّئ قلبه المجروح الموجوع.

غادرت المكان والسكرتيرة تتبعني بنظرة احترامٍ لم تولِهِ لي عند وصولي، فقد أدرَكَتْ أن اجتماعي بصاحب المكتب كان أهم كثيرًا ممّا ظنّت. ابْتَسَمْتُ لها وغَمَزْتُ بعيني مداعبًا قبل أن أعبر باب المكتب وأختفي عن نظرها.

طلبت المصعد لنزول تلك الأدوار العشر وأنا لم أجنِ من الزيارة ذلك المردود الذي ذكره أكرم والزملاء. رأيي الذي كوَّنته في البداية لم يتغيّر. من الجائز أن إجراءها قد ساعدني في تعايُش أجواء المُشكلة بصورةٍ أكبر، فألهمني بمزيدٍ من السطور التي كانت تمُرّ بخاطري أثناء جلوسي مع الرجل وبالإمكان حشو التقرير بها.

تحرّكت بسيارتي نادمًا محسورًا على وقتي الخاص الذي أضعته. ظللت أدور كعادتي حتى غلبني الإرهاق، فعُدت إلى البيت لأجد أمِّي نائمةً أيضًا. آثرت ألَّا أُقلقها بصوتي ودلفت لغرفتي أكتب مسوَّدة لتقريري. كان قلمي يتعثّر كلما أنهيت فقرة من فقرات التقرير، فأعود لمُعاينة النماذج التي أحضرتها من المكتب، لأكتشف أن معلوماتي ما زالت ناقصة وبحاجة إلى الاكتمال. يا لحظّي العَثِر! أغلقت الملف وأويت لفراشي لأغطّ في نومٍ عميق.

كُنت أتناول إفطاري وأنا أرتدي ملابسي كسبًا للوقت حين سألتني أُمّي: (أين ذهبت مساء أمس؟). فقصصت عليها ملخَّصا لزيارتي الأولى التي خضتها. كانت سعيدة بنتائجها أيَّما سعادة. ظلَّت تدعو لي بالتوفيق. نقلت لها مشاعري المبغضة لوالدة الطفل المسكين، فدعت عليها بأن تلقى ما تستحقُّه. حويطةٌ أُمِّي ولا تزِلَّ أبدًا في الخطأ أو تأخذ بأحكام الآخرين على بعضهم البعض.

صفَّفت شعري ثم غادرت المنزل مُسرعًا، وبيدي حقيبتي المحشوَّة بملفاتي.

مررت بأكرم هذه المرَّة وألقيت التحية عليه دون أن أدخل له.

ما كدت أن أصل لباب غرفة مكتبي حتى وجدته يتبعني بالمشية الرسمية لمُديرٍ يتفقَّد العمل ويداه معقودتان خلف ظهره. ناداني وطلب مني تفهُّم ما حدث بالمقهى فلم أُعقِّب. ظلَّ يُبرِّر لي تصرُّفه بحرجٍ وشجنٍ واعتذارٍ وتكرارٍ لم يتوقّف حتى أبلغته بنفاد صبرٍ أنني ما عُدت منزعجًا. طلب مني إثبات ذلك بابتسامة فرسمت على وجهي ابتسامة رسمية مُفتعلة، فابتسم وفكَّ سراح يديه ليُبرز لي زهرةً فجَّرت ابتسامتي الحقيقية. فقد كانت مألوفةً لي. كُنت أعلم جيدًا من أين أتى بها. قدَّمها لي وهو يقول بثقة: (سنُعاود لقاءاتنا في المقهى فور أن يتم تثبيتك في العمل).

- عشمك في ذلك يبدو أكثر طموحًا من عشم إبليس في دخول الجنة. أعني مسألة تثبيتي بالمناسبة.

- (بلوم) لا تقُل ذلك. هذا العمل مُمتع إلى درجةٍ لا تتصوَّرها. لاسيما حين تنخرط في الزيارات...

- (مُقاطعًا) لقد أجريت أولى زياراتي أمس ولم أشعر بأي مُتعة! أوراق الملف تتحدّث عن نفسها ولا تستحقُّ أي جهد. قراري فيه لم يختلف بعد الزيارة عمَّا كان عليه قبلها.

- لا تثق في انطباعاتك الأولى. لا تتبنَّ رأيًا من أول زيارة؛ فأنت لن تفهم الوضع جيِّدا أو تتّخذ قرارًا صائبًا إلا بعد عدة زيارات. أدعوك أيضًا ألّا تحكم على العمل من أول ملف ستعمل عليه. فقد تُصادف أنه رتيب ومُملّ. عليك أن تنخرط في دراسة عدة ملفات... سأعمل على ذلك.

هززت رأسي عازمًا أن أُنهى هذه المُحاضرة التي سئمتها، ودعوته لمشروب بمكتبي، فشكرني واستدار عائدًا لمكتبه. تبعته وأنا أتعمَّد لفت نظره حتى أعَدْت الزهرة للكوب الفارغ الموجود على طاولة سكرتيرته مُعربًا لها عن شعوري بالغيرة من تلك الزهرة المُتعدّدة المواهب، والتي فاق نفعُها في هذا القسم نفعي!

ما أن استدرت حتى أبلغتني السكرتيرة بأن ثمة ملفَّين جديدين تم تحويلهما لي من أكرم. التفتُّ لها بفزع فلوَّحت لي بهما، فالتقطتهما باستنكار وأنا أتساءل... أتلك هي هدية عُطلة نهاية الأسبوع التي كُنت أنتظرها من العمل؟

نَظَرْتُ تجاه باب غرفة أكرم الموصد بغلٍّ وقد تذكّرت قوله: (سأعمل على ذلك) الذي بالكاد صرَّح لي به! يبدو أنه نفَّذ ذلك قبل استئذاني.

جلست على مكتبي وأنا أُعاين الملفَّين الجديدين. كُنتُ أجزُّ على أسناني غيظًا، لكن سرعان ما استسلمت للأمر كعادتي تجاه كُل ما يُفرض عليَّ. كان مؤشَّرا على أولهما بعبارة (عاجل - سيدخل ضمن التقرير الخاص بتثبيتك). زفرت بضيق وأنا أفتحه لأجده خاصًّا بفتاة سَرَقَت ساعة يد زميلتها في الفصل. أصابتها حالة هيستيرية فور ضبط الساعة بحوزتها، تم تحويلها للمُشرفة الاجتماعية، التي أوصت بعد فحصها بعدم إخطار والديها بما حدث؛ لخوف الفتاة الشديد من قسوتهما معها، والتَمَسَتْ مساعدة المكتب، كما طلبت أن تتمَّ الزيارات أثناء ساعات الدراسة؛ كيلا يعلم والديها بالموضوع، ما لم ينتهِ المكتب إلى ضرورة إخطارهما.

الملف الآخر كان بغرض إجراء استطلاع رأي وإعداد بحث عن التفكُّك الأُسري وعلاقته بالمرض النفسي. خلا من تلك التأشيرة المُتفائلة فحمدت الله، فهذا الملفُّ على ما يبدو يحتاج لوقتٍ طويل، ولمُشاركة أكثر من مُوظّف.

نظرتُ في ساعتي. كان الوقت مناسبًا لإجراء زيارتي الأولى لصاحبة هذا الملف العاجل الذي لو انتظرت لبداية الأسبوع الجديد لفقد هذه الصفة. وبالأحرى؛ وجدته حُجَّة سائغةً للهروب من ذلك المكتب الكئيب، قبل أن أتلقى زهورًا أُخرى تعقُبُها ملفات أُخرى.

طرأ لذهني أن أتصفّح بعض المقالات والأبحاث المنشورة على شبكة الإنترنت حول هذا الموضوع لأستحضر أسئلتي، تفاديًا لذلك الارتباك الذي شعرت به في زيارة أمس، فأمضيت في ذلك نصف ساعة، ثم غادرت قاصدًا المدرسة.

كانت المُشرفة الاجتماعية في انتظاري عن كثب، وجدتها شابَّة أنيقة حديثة التخرُّج، حاصلة على ذات مؤهِّلي الجامعي، وتم تعيينُها في المدرسة. هنَّأتها على قرارها الذي تأخَّرت أنا فيه حتى صار أحد زُملائي في الدُّفعة رئيسًا لي في العمل!

بدأت تشرح لي الحالة بالتفصيل.

أمس؛ خلعت إحدى الفتيات ساعة يدها وتركتها فوق حقيبتها أثناء وقت راحة مُنتصف اليوم الدراسي، وحين عادت لم تجدها في مكانها. أبلغت الإدارة، وتم إخراج جميع الطلبة من الفصل الذي تنتمي إليه الفتاة وتفتيش حقائبهم، وعُثر على الساعة في حقيبة زميلتها ميساء. طالبة تبلغ من العمر سبعة عشر عامًا، ومن أسرةٍ متيسّرة الحال، ولها شقيق وشقيقة هي الوُسطى بينهما.

أضافت المُشرفة أنها كانت قادرة على التعامل مع الفتاة إلا أنها رأت أن أخصّائيًّا اجتماعيًّا من الذكور سيكون أكثر خبرةً منها في التعامل مع خصوصية هذه الواقعة، وهو ما دعاها لطلب المساعدة من مكتبنا. ابتسمت في سرِّي وأنا على وشك أن أقول لها: (ونِعم الاختيار!!).

كُنت أكتب ما تقوله المُشرفة دون أن أنظر إليها. سألتها إن كانت هذه هي المرَّة الأولى التي

تُحاول فيها الفتاة السرقة، فأومأت بالإيجاب، فسألتها: هل تم إخراج الساعة من حقيبتها أمام زملائها، فنفت بنظرة الخبير الذي لا يفوته هذا الأمر، وذكرت أنه تم إخراج جميع الطلبة من الفصل أثناء التفتيش. تنهُّدت بارتياح، فأردَفَتْ: (لكن الخبر انتشر في المدرسة كالنار في الهشيم)، فصرخت فيها: (هذا تصرُّف غير مسئول ولا احترافي!).

- لم يكن مقصودًا في جميع الأحوال.

- وليس أخلاقيًّا في كُلِّ الأحوال! وكيف واجهت الفتاة زملاءها بعد ذلك.

- أنا عالجتُ الموقف وأوضحتُ في طابور الصباح أن من أشاع الخبر كاذب، وأن أحدهم قام بدسِّ الساعة تحت حقيبة ميساء، وستعمل إدارة المدرسة على تحديده ومُعاقبته.

- هذا تعامُل مقبول، (وأَرْدَفْتُ بسُخرية) ولكن هل صدّق الطلاب ذلك؟

صمتت المُشرفة ولم تجبني. كنت أعلم أن الأمور ستجري بهذا السوء! طلبت منها أن تذهب لإحضار الفتاة، وما أن وصلت للباب حتى طَرَأَتْ لي فكرة قررت تنفيذها كبدايةٍ لمعالجة الموقف، فناديتها وطلبت منها أن تُخبر الفتاة أمام زُملائها بأن المدير يطلبها للاعتذار عن سوء الفهم الذي حدث أمس، وبعد أن تُحضرها لي؛ تعود للفصل وتُخبر زملاءها بأنه تم التوصُّل لمن قام بمُحاولة سرقة الساعة، وأن تستطرد أمامهم بعفوية أنه أقرَّ بفعلته، وأنه ليس من عُمَّال المدرسة، وإنّما حِرَفيّ كان يُجري صيانةً ببعض الفصول، وحين فوجئ بحضور أحد السعاة للفصل قام بإخفاء الساعة أسفل حقيبة ميساء، ولم يتمكَّن من استردادها لبقاء الساعي مُلازمًا له حتى غادر.

أعجبتها الفكرة وابتسمت وهي تنصرف بحماس لتنفيذ الأمر، فطلبت منها إن كان لديها ساعٍ يُعتمد عليه في المشاركة بحبكة هذه الفكرة فلتذكر للطلبة اسمه، بشرط أن تؤكّد عليه أن يحفظ هذا التصوُّر الذي ذكرته لها عن ظهر قلب، وأن يتفهَّم سرية الموضوع فلا يبوح به لأي شخص، زاد استحسانها للفكرة مُردِّدة أن ذلك كان سبب إصرارها على حضور أخصّائي ذكَر، وأَرْدَفَت أنها ستُرتِّب كل شيء أثناء جلستي مع الفتاة، ثم غادرت.

ما أن اختفت المُشرفة حتى انتابني القلق الشديد وأنا أتساءل: ما الذي فعلتُهُ لتوِّي؟ لقد تسرُّعت بطرح أفكارٍ تبدو سطحية وغير مدروسة، لا أعلم إن كانت ستُساعد في حل مشكلة الفتاة أم ستزيدها تعقيدًا! كان عليَّ أن أكتفي بمُقابلة المُشرفة في هذه الزيارة، لأترك لنفسي الفرصة لتدارُس الموضوع مع الزُملاء القُدامى وأتفهَّم منهم ما يجب فعله إزاء سلوك الفتاة!

حضرت الفتاة ليتضاعف توتُّري. عَبَرَت الباب وتركته وراءها مفتوحًا. تقدَّمَت لتقف أمامي بارتباكٍ شديدٍ وهي تنظر للأرض. كانت فتاة جميلة ورقيقة، نحيفة الجسم طويلة القامة. ابتسمتُ لها بودٍّ طالبًا منها الجلوس، فاستجابت لتجلس وعيناها كمن يُصلّي مُعلّقتين بموضع السجود.

بَدَأتُ كالعادة أُقلّب أوراقي وأنا أُقدّم نفسي وأُحيطها بوظيفتي، وشرحت لها أنني حضرت لأُساعدها لأنها... تلعثمت كلماتي ولم يحضرني وصف مُناسب.

استعدادي لهذه الزيارة كان بكل تأكيد ناقصًا!

التفتُّ للفتاة مُتأمّلًا وجهها، في انتظار وحي تمنيت أن يهبط عليَّ لأُكمل حديثي المبتور. عصفٌ ذهنيٌّ اشتدَّ برأسي قبل أن أبتسم مُردفًا لها أنها مثل شقيقتي الصغيرة سماح. تنهَّدت وقد لمست نجاح اختياري هذا، والذي انسابت بعده أفكاري، فأردفت لها أن شقيقتي كانت تستلُّ متعلقاتي وحلواي من أدراجي دون أن أتَّهِمها يومًا بالسرقة. كُنت أعلم جيِّدًا ما يدور برأسها. منذ طفولتها. كُنت أعلم أنها صالحة.

ظلّت الفتاة صامتة، فاستطردت - التزامًا ببدايةٍ قادتني لذلك - قائلًا إن شقيقتي لم تكن تنتفع بمتعلّقاتي أو تُقايضها بما ترغب في شرائه. كان سلوكها ذاك من مُنطلق العبث واللهو فقط. أحيانًا كانت تُلقيها من النافذة لتقع على رأسي أو تدوسها قدمي وأنا أدخل من باب البيت عائدًا من المدرسة. كدت مرة أن أُلقيها من ذات النافذة لتتوقّف عن هذا العبث!

لم تهتزّ للفتاة شعرة، فرجَّحت فشلي في كل ما قُلت. بدأت أستحضر ما قرأته قبل حضوري، فالتقطت منه بدايةً جديدةً لحديثي. تلفَّتُّ حولي كمن سيُلقي مُحاضرةً قبل أن أقول لها إننا جميعًا مُعرَّضون لفعل ذلك. بعض الأشياء تشدُّ انتباهنا حين نراها، فتستأثر بشغفنا وفضولنا الذي يُبرِّرُ لنا انتزاعها بأي طريقة! شعورنا فور تملُّكها يكون رائعًا؛ ينتابنا الرضا الشديد والامتنان، لكنه شعورٌ وقتيٌّ سرعان ما يزول ليحلَّ محلَّه القلق والخوف.

انتهى ما تذكَّرته من سطور ذلك البحث، لينتفض شيطان خيالي مُصرًّا على أن يعود ليمتطي لساني، فتلفّتُّ حولي مرة أُخرى كمن سيُفصحُ بسرٍّ خطيرٍ، ثم همست للفتاة أنني شخصيًّا فعلت ذلك عدة مرات في والديَّ. أذكر أيضًا أنني اختلست الحلوى عدة مرات من بقالة شارعنا. كُنت أُغافل صاحبها كل مرة. العمّ فوزي. لكنني لم أكن أرميها من النافذة كما تفعل سماح، بل كُنت آكُلُها بنهم. ثم ينتابني بعدها ذات الشعور! الخزي والندم الشديد.

لمحت انتباهًا منها بعد تهوُّري الأخير، فأردفت لها أن الأمر كان يُساورني فجأة دون تخطيطٍ سابق. شيءٌ ما يتلألأ في عيني فأُصر على الاستئثار به دون وعي! ثُم لا ألبث أن أُلقيه في القمامة قبل أن أصل للبيت خشية اكتشاف ما فعلت! لأستريح ويزول عنّي ذلك الرعب الذي كان يتملّكني، ولأكتشف أنني ما كنت في حاجةٍ لاختلاس هذا الشيء! لم يكن له عندي أيُّ قيمةٍ أو استعمال! ولو كنت طلبته من والديَّ لأحضراه لي دون أن أضطرّ لفعل ما فعلت!

مرَّت دقائق من الصمتِ قرَّر فيها عقلي مُعاقبتي على هذه الفوضى التي أنتهجها، لكن خيالي لم يتخلَّ عنّي، فأطلق لساني من قيده لأُرْدِفَ للفتاة أنني أتذكَّر ذلك اليوم جيِّدا. حين اكْتَشَفَتْ أُمِّي سلوكي، وجدتها تستدعيني وهي تقف في المطبخ بوجهٍ جامد. اقتربت منها لأجدها تضع سكِّينا على عين الموقد الكبيرة المُتوهِّجة. تملَّكني القلق وأنا أنظر إليها بضعفٍ واستكانةٍ شديدة. كانت تُقلِّب السكِّين على جانبيها وقد استبدلت لمعتُها بحُمرة الجمر المُلتهب. طَلَبَتْ مني الاقتراب فلم

أَطِعها، وبدأت أنسحبُ من أمامها وأتراجع للخلف حتى اصطدمت بأبي الذي كان يقف صامتًا وقد ملأ جَسَدُهُ فراغَ باب المطبخ. استدارت أُمّي واقتربت مني وهي تحمل السكِّين المُلتهب مُعلنةً أن السارق ستُقطع يده.

لمحت ذهول الفتاة، فوضعت يدي على عينيّ بألمٍ شديدٍ اصطنعته، مُستطردًا أن أُمّي طلبت مني إبراز يديَّ المُتشنجتين خلف ظهري، وحين رفضتْ طَلَبَتْ من أبي مُساعدتها، ليبدأ هذا الأخير في الإمساك بيديَّ بقوَّة لفصلهما.

أزحت يديَّ عن عينيّي لأجد المُشرفة تقف وراء الباب تُتابعني بابتسامة بلهاء. كانت تتعمَّد ألّا تنتبه الفتاة لوجودها، لوّحت لي بيدها مُستعلمةً عن الأخبار، فالتقطت أنفاسي اللاهثة واستعدتُ حالتي الطبيعية وأنا أدعوها للدخول لتُنقذني من تدفُّق خيالي الخصب الذي لا أعلم إلى أين كان سيقودني!

أحْضَرَت المُشرفة مِقعدًا وشاركتنا الجلسة، فسألتُها عمّا فعلت، فأخبرتني بابتسامة واسعة أن المُدير تفهَّم الحيلة ووافق على تنفيذها، ولم يعترض على أن يُعْلَنَ لزملاء ميساء أنه اعتذر لها إن كان ذلك سيُحقّق صالحها. وأَرْدَفَتْ أن زملاءها تأكّدوا تمامًا من أن فنّي النجارة هو من عبث بساعة زميلتهم، وكاد يسرقها لولا مرور الساعي بَيومي وبقاؤه مع الفنِّي حتى غادر الفصل. أضافت أنها أحضرت لهم بيّومي ليُحيّيه الطلبة ويُصفِّقوا له، ليُصرَّ هذا الأخير على أن يشرح لهم كيف لاحظ الفنِّي يعبث في الفصل، فقفز ليقف له في مُنتصف الفصل كعمله الرَّديء، طالبًا منه بحسم أن يُنهي العمل وينصرف معه. لقد اقتنع الجميع بالقصَّة لدرجة أن صاحبة الساعة قدَّمت له مُكافأة نقدية أسعدته.

أخيرًا رفعت ميساء رأسها وابتسمت لأول مرة منذ أمس بحسب ما ردَّدته المُشرفة، فتنهَّدت وأنا أقوم عازمًا إنهاء زيارتي التي ما كان لها أن تبدأ، مُعلنًا لهما أنني ما كُنت أطمح من زيارتي لأكثر من هذه الابتسامة الجميلة لأقضي يومًا سعيدًا على إثرها، طلبت من الفتاة ألّا تتحدّث عن الأمر مع أيٍّ من زملائها. ما حدث هو ما سمعته لتوِّها. وعدتها بزيارتها مرةً أُخرى غدًا، وودّعتها قائلًا: (إلى اللقاء يا سماح.. أقصد يا ميساء).

انصرفت لأركب سيارتي وضميري يؤاخذني على كلِّ ذلك الكذب الذي استطردت فيه، فأنا لا أذكر يومًا أنني أو شقيقتي سماح فعلنا ما ذكرته للفتاة. كُنت أعلمُ من أُمِّي أن الكذب يكون جائزًا في ثلاث حالاتٍ فقط؛ للإصلاح بين الناس، وفي الحرب، وفي حديث الزوجين! فتمنيت لو أن ما فعلته يُجاز بوصفه فرعًا من فروع إصلاح النفس. أو من المُمكن احتسابه ضمن فروع الحرب إن اعترفنا بتلك الحرب الدائرة في نفس الفتاة بسبب تناقُضاتٍ تُعانيها. أشعُرُ بأن ربّي سيُسامحني لغرضي الطيِّب وسعيي لإصلاح ما شاب سلوك الفتاة من خلل.

في جميع الأحوال؛ أشعر بأنني اكتسبت بحديثي هذا ثقتها لتشعر بأنني لست بعيدًا عن واقعها،

وهو مدخل مناسب لنفاذ حديثي القادم لعقلها. هذا بخلاف تلك الحيلة التي نفّذتها المُشرفة، والتي أحسبها قد نجحت في حفظ ماء وجهها أمام زُملائها وصرْف ذلك الاتّهام عنها. هذا في حدِّ ذاته إنجاز.

عدتُ للعمل، لأمضي ما تبقَّى من وقته في مناقشة زملائي في بعض ما لاحظته في زيارتي، والتي لم أشعر منها بتلك التأثيرات التي كانوا يتحاكون عنها، فأخبروني بأنني لم أبلغ مدايَ بعدُ، وطلبوا مني التريُّث وعدم مُجاراة فُضولي في كتابة التقارير حتى أَتَشَبَّع بظروف كل حالة تمامًا، فالأمر جدّ حساس وستترتب عليه مصائر البعض. خِلْتُهم يُبالغون كالعادة لتنميق ذلك العمل البسيط، فجاريتهم في الحديث؛ كيلا أُطيل مناقشاتٍ لا لزوم لخوضها.

عُدت للبيت، اغتسلتُ وبدّلت ملابسي، ثم تناولت وجبتي في المطبخ كالعادة، لأقضي وقتًا مع أُمِّي في غرفة المعيشة قبل أن ألتقط ملفّي وأتحرّك لزيارة والدة الطفل شريف. السيدة ريهام التي تواصلت معها قبل مغادرة المكتب مُنقادًا لنصائح زملائي، فرحَّبت بمُقابلتي في تمام الخامسة.

راجعت ملف الطفل وأنا في طريقي للزيارة التي كنت أعلم أنها محض روتين عليَّ تنفيذه. فأنا مُقتنع بأنني لن أخرج منها بأكثر مما حوى غلاف ملفِّي من حقائق أكدها حديث زوجها الذي كانت زيارته كافيةً لاكتمال الصورة في مُخيِّلتي.

خمَّنت وأنا في الطريق أنها ستخرج لي حين أطرق الباب كأي امرأةٍ لعوب لتدعوني للدخول بنظرةٍ ساهمةٍ غاوية وهي تنحني لترتكن بكتفها الأيسر إلى الباب بخمول، بينما تحمل بيدها الأُخرى سيجارةً رفيعةً بمِبسمٍ ذهبي، يتصاعد منها خيطٌ رفيعٌ من الدخان سأتبعه بنظري، يظلُّ مُتماسكًا في الهواء حتى تقذفه برُمحٍ من ذات جنسه يخرج من بين شفتيها القُرمزيتين فيَشُجُّه ليُصبح أشلاء في الهواء. ومن خلف ذلك كله ستظهر ملامح وجهها الجذاب المكتنز الخدَّيْن، المُمتلئ بمساحيقٍ أسرفت كثيرًا في وضعها.

بدأت الحرارة تسري بجسدي، فاعتدلتُ في جلستي وأنا ألوم نفسي وأُعاهدها على ألّا أنظر للسيدة بتلك النظرة، سأتعامل معها بذات قدر الاحترام الذي أوليته لمُطلّقها - رغم الفارق الكبير بينهما - تفاديًا لأن أستفزَّها فترمي بلاءها عليَّ أو تدَّعي أنني راودتها عن نفسها؛ لتبتزَّني لكتابة التقرير لصالحها.

بدأت أهاب تلك الزيارة الثقيلة على صدري. كدت أطلب من سائق الأُجرة الاستدارة لأعود للبيت. لكن؛ لا بأس، سأصمد وأُجاريها باحترافية، فعليَّ أيضًا مُقابلة الطفل لأمنحه بعض الأمل في الحياة، سأُعطيه رسائل طمأنة، فحواها أنه سيُغادر تلك البيئة العطنة قريبًا ليرتمي في أحضان والده المُخلص المُحبّ.

المنزل فخم ويقع في حيٍّ لا يقلُّ رقيًّا عن الحي الذي يضمّ مكتب مُطلّقها. قابلت رجل الأمن وعرَّفته بنفسي وبرغبتي في مُقابلة السيدة ريهام، فالتقط سمّاعة الإنتركوم وتحدّث عبرها، ثم

أعادها لحاملها وهو يطلب مني أن أتبعه إلى المصعد الذي حملنا للدور الثاني.

فتحت السيدة باب شقَّتها مع فتحنا لباب المصعد. طلبت منَّا الدخول بوجهٍ جامدٍ، فتحرّكت خلف فرد الأمن بتؤدة وصمت.

بالطبع لم أجد تلك السيدة التي توقَّعت هيأتَها وانتظرت طلَّتها طوال الطريق! ضحكت في سرِّي وقد تذكَّرت ذلك المشهد من الفيلم الذي ظهرت فيه إحدى الساقطات أمام هيئة المحكمة بزيٍّ ملتزمٍ محتشمٍ أذهل الفنان الذي كان يُمثّل دور مُحامي خصمها. الدور الذي تملَّكني في تلك اللحظة بالمناسبة.

قدَّمَت لنا كوبين من الشاي وهي تسألني عمَّا تستطيع خدمتي به، أخبرتها لها وأنا أتفحَّص بعض أوراق الملفِّ الذي أحمله أنني مُكلَّف ببحث الطلب المُقدّم من مُطلّقها لحضانة الطفل شريف. جلست والضيق لم يُفارق وجهها مُكرِّرةً عرضها، مستفهمةً عن المطلوب تحديدًا. قلت لها بعجرفة أن المطلوب تحديدًا هو مقابلة الطفل، لكن لا بأس من أن تسترسل فيما ترى لزوم عرضه عليَّ أثناء بحث الطلب وكتابة التقرير الخاص به.

غادرتنا السيدة لدقيقة، ثم عادت لتطلب من فرد الأمن الانتظار بجوار باب الشقَّة وهي تُقدِّم لي ورقة، اكتشفتُ أنها قسيمة طلاقها. كان مظهرها مختلفًا عن تلك المُعتادة، فتذكّرت أنها صادرة من السفارة. نظرت للسيدة مُنتظرًا حديثها، قالت بصوتٍ مُختنقٍ ولهجة استنكار: (إنه شخص طلَّقني غيابيًّا بسبب وشايةٍ من صديقه! لم يُكلِّف نفسه ثمن تذكرة سفرٍ ليحضر ويتأكّد من صحَّة ما سمعه قبل أن يُقرِّر بإرادته المُنفردة إنهاء علاقتنا الزوجيّة! لم يهتم حتى بإرسال صديق أو قريب ليستوضح الأمر ويستوثق من المعلومة التي وصلته.. أنا لن أسألك عن صلاحيته لرعاية الطفل، ولكنني سأسألك سؤالًا أكثر بديهية من ذلك: أيكون هذا الشخص عاقلًا؟).

- الخيانة مُرَّة يا سيّدتي. لا يحتملها بشر.

- أيُّ خيانة؟ خيانتي أم خيانته؟

صَمَتُّ وأنا لا أملك سوى ردٍّ واحدٍ لن تُسعفني شجاعتي لقوله، فأردفت هي: (منذ تزوَّجنا وأنا أرقب التغيُّرات التي تطرأ عليه. أراه يختلس النظر للنساء بانحطاط. حتى صديقاتي شكون لي من نظراته وتصرُّفاته وتلميحاته. أعلم أن كثيرًا من الرجال بعد الزواج يزهدون زوجاتهم ويبحثون عن غيرهن ولو كُنَّ أقلُّ منهنَّ مالًا وجمالًا، لكن ليس بهذه الدناءة والدناوة! ليس أيضًا بهذه السرعة الفجَّة! لقد رصدتُ مكالماته الماجنة المُخجلة منذ الشهور الأولى فآثرت ألّا أُواجهه بها؛ كيلا أكون كالنحلة التي تطنُّ لتخرب عُشَّها.. إنه الخائن يا أستاذ وليس أنا. والخائن بطبعه لا يرى خيانته، وإنما يتهيَّأ له صدورها من الآخرين).

صمتت السيدة ريهام وقد قطع حديثها تهدُّجها بالبكاء. كان حديثها ليؤثِّر في أي شخص غيري، فأنا كُنت أتوقَّع أن تسير الأمور إلى ذلك، إذ لا وجه لأن تُصارحني بخيانتها.

ظللت صامتًا احترامًا لبكائها حتى أوجست هدوءها، فسألتها: (تحمَّليني يا سيدتي، فأنا...) فقاطعتني: (تقول إن الرجل لا يحتمل الخيانة؟ أتظن أنه مُقتنع بأنني خنته؟ خائف على ابنه؟ أتعلم متى عاد من السفر بعد أن طلّقني؟ لقد استمرّ في غُربته ستَّة أشهر كاملة بعد طلاقي! أهكذا يكون حال المصدوم الذي اكتشف خيانة زوجته؟ المُهتم لالتقاط ابنه من براثن الخطيئة؟ إنه مُمثلٌ بارعٌ يا سيدي، لكنني لن أترك له ابني. لن أتركه). وعاودها البكاء مرة أخرى. آثرت الصمت أيضًا. كانت أمِّي تُخبرني بأن النساء بارعات في البكاء، ودموعهن كدموع التماسيح. سأحكي لها حين أعود أنني رأيت ذلك بأمِّ عيني!

ظلت السيدة صامتة شاردة. كان الوقت ينفذ مني وأنا لم أُقابل الطفل بعدُ. لقد عزمت على إنهاء الملف الليلة. تَنَحْنَحْتُ فَنَظَرَتْ لي. بادرتها بأنني بحاجة للحديث مع الطفل لبعض الوقت، فأجابتني بأنه غير موجود، فهو ببيت والدتها حيث اعتاد قضاء عطلة نهاية الأسبوع. تفاجأت بالأمر. سرت القشعريرة بجسدي حين تذكَّرت قول الرجل بأنها تترك الطفل عند والدتها لتخونه. هي إذًا تستعدُّ لذلك الآن!

نَهَضْتُ بعصبية وأنا أطلب منها إرشادي لعنوان والدتها لزيارة الطفل، لكنها رفضت تزويدي به، أرْجَعْتُ رفضها إلى خوفها من أن أُقابل الطفل قبل أن تُهيِّئه هي لذلك. فقلت لها إن مقابلته أمر ضروري لن أتنازل عنه، وإن منعي من إجرائها ليس في صالحها، فوعدتني بأن تُحضره من عند جدَّته فور انتهاء العطلة، وطَلَبَتْ رقم هاتفي الخاص للتأكيد عليَّ إن تمكَّنت من إحضاره قبلها، فاعتذرت لها وأبلغتها بأن اتصالي بها لا يكون إلا عن طريق المكتب كما فعلت اليوم، ووعدتها بالتأكيد عليها قبل حضوري في بداية الأسبوع الجديد على أمل لقاء الطفل.

غادرت لأُصاحب فرد الأمن ونهبط الدرج. كان وصول السيارة الأُجرة سيستغرق ربع ساعة، فعزمت على ألا أعتمد عليها في زياراتي التالية. شاركت فرد الأمن مكتبه لأُفرغ بتقريري ما خلصت إليه من المُقابلة. السيدة حويطة وحذرة، ولن تكون متعاونة بالقدر المطلوب.

ركبت السيارة وأنا تَعِسٌ من إرجاء التقرير ليومٍ آخر. يبدو أنه كان عليَّ تجاهل هذا الملف والبدء في ملفٍّ آخر.

كان زُملائي المُتسكّعون في الطرُق مُنتشرين كعادتهم في هذا اليوم من الأسبوع. كوني مستقلًّا لسيارة الأجرة حال بيني وبين الانضمام إلى ركبهم، فاكتفيتُ بتَفَرُّس وُجُوههم. كان أغلبُهُم من المراهقين الذين طغى على أغراضهم الخُبث والفُجور كما هو دارج في أيام العُطُلات. فعُدت بنظري لملفِّي وأنا أطلب من السائق زيادة سرعته للعودة للمنزل قبل أن يغلبني شيطاني.

حين وصلت للبيت وجدت أُمِّي تُشاهد التلفاز، فجلست بجوارها والتقطت ثمرة تفاحٍ حمراء قضمتها وسط صراخها لعدم التزامي بغسل يدي فور وصولي. بعد أن انتهيت منها دلفت لغرفتي ووضعت الملف بضيقٍ ويأسٍ على مكتبي وأنا أُحذّره من الاستمرار في التلاعب بي، وأخبرته

بأنني سأمنحه فرصة واحدة أخيرة.

بدَّلت ملابسي واغتسلت ثم عدت لأفترش الأريكة وأُشاهد التلفاز بجوار أُمِّي كعادتنا في أيام العطلة. أخبرتُها بأن يومي كان يومًا تاريخيًّا؛ إذ أنجزت خلاله زيارتين من زيارات العمل! رغم أنه اليوم الذي اعتدت على امتداد سنين عمري أن أقضيه كاملًا في اللهو مع الأصدقاء، فسألتني عن شعوري بهذا التغيير، فأعربت لها - بتأثُّرٍ شديد - عن أسفي على فوات يومٍ عظيمٍ من عُمري في هذا العبث! صَدَمَتها إجابتي وامتعض وجهها، فَتَعَمَّدَت تجاهُلي والانتباه لشاشة التلفزيون؛ لتنقل لي شعورًا بأن مُتابعتها كانت أكثر قيمةً من الاستماع لحديثي.

كان معروضًا على الشاشة فيلم عربي تناول أحداثًا مُشابهةً لحالة أسرة الطفل شريف. زوج ترك زوجته وسافر من أجل المال، فكان الثمن خيانةً وفُرقةً. ما اختلف في أحداث هذا الفيلم هو أنه عبر بالطفل الزمن ليتناول حياته المُستقبلية حين يُصبح مراهقًا ثم شابًّا. كانت مُفعمةً بالضياع والتشرُّد والإجرام.

توقُّعات منطقية تناولتها السينما والروايات من عدة زوايا! تساءلت في نفسي: كيف لا ينتبه البعض لتلك النهايات الطبيعية المُنتظرة لمُقدِّمات استغناء الزوجين عن بعضهما؟ أسيُعَوِّضهُما المالُ ما فقداه؟! أشكّ في ذلك.

ظلت الأفكار تعبث برأسي حتى خلدت للنوم.

* * *

أمضيت قِسمًا مُعتبرًا من عُطلة نهاية الأسبوع في النوم، سواء على سريري أو مفترشًا الأريكة في غرفة المعيشة، واضعًا رأسي على ساق أُمّي كالطفل الصغير، كانت كُلّما أفعل ذلك تلومني لثِقل رأسي، فأُحاول تخفيف وزنها برفعها بعض الشيء، لكنني؛ وبمشاعر زورقٍ صغيرٍ كانت الأمواج تتلاعب به طوال الأسبوع فترفعه إحداها لتهوي به الأخرى وتملأ صحنه بالماء فيزداد حمله، كُنت أجد على ساقها مرسايَ الآمن الذي أتوق إليه، فأسقط في النوم ليعود ثِقَلَ رأسي ويُؤلمها، لكنها كانت تتحمَّل قدر استطاعتها؛ كيلا تؤرِّق غفوتي.

حدثتني أُمِّي أثناء ذلك عن شكوى شقيقتي المستمرة من زوجها. انْفَجَرْت حينها ضاحكًا وأوضحت لها أن الأمر ليس كما تظن.. إنها سلبيات وسائل التواصل الاجتماعي الحديثة التي أصبحت أمرًا واقعًا لا مفرَّ منه. وعدتها بأن تهدأ الأمور قريبًا دون تدخُّلٍ من أحد. حاولت قدر استطاعتي تقليص مخاوفها، وعزمت على أن أُنبِّه سماح ألا تُقحمها في تلك المشاكل البسيطة؛ كيلا تزيد همومها.

فاتحتني كذلك في موضوع الزواج. كانت ترجو أن تراني عريسًا قبل أن ترحل، فحذَّرتُها من أن تُردِّد ذكر رحيلها مرةً أُخرى، ووعدتها بأن أبحث عن تلك العروس التي تستحقُّ أُمًّا حنونًا مثلها، ورجلًا مُميَّزا مثلي، فأخبرتني بشجن بأنها كانت أمامي ففقدتها بغباءٍ لم تتوقّعه. يا لقسوتك! ليتك ما ذكَّرتِني بها يا أُمِّي! همْس. تلك الفتاة التي أحببتها وارتبطت بها بعقدٍ وثّقه شارع بَيْتَيْنا، وبمشاعر حفَّها أملُ مُراهقَيْن وَجَدا من خلال نافِذَتَيْ غُرفتيهما مُستقبلًا موشكًا، فانطلق عنان خيالهما لرسم خُطَطٍ وأفكارٍ قصدا فيها كل دروب السعادة وأقصيا عنها كل مُسبِّبات الحُزن، ثم افترقا على طاولة مقهى الفِراق! وعلى ناصية عملٍ لم يرُق لي! لتنضمَّ إلى اختياراتي الضائعة ثمنًا لعِنادِي وإصراري ألّا أنصاع لذلك العمل البائس.

استرحت خلال العطلة أيضًا من صوت جرس تنبيه هاتفي المحمول الذي كان صداه يتردَّد في أُذُني طوال الوقت كبوق سيارة شرطةٍ يخشاه لصٌّ خطيرٌ هاربٌ من العدالة! تمنيتُ لو أنها أمسكتني وأراحتني من ذلك الصوت، ومن فراري المُستمر الذي كتبته على نفسي. هروبي من واقعي الذي لم أختره، ولم أقبله، فكنت أتعايش معه لكسب رضا المُحيطين بي وحسب.

تأمّلت أثناء عطلتي أيضًا تلك الزيارات الهزلية التي أجريتها فلم أجد منها سوى امتعاض طرفيها! الزائر والمُستقبِل! فلا خرجت أنا منها بما يُرشدني في إنجاز عملي أو يكشف لي حقائق كانت غائبة، ولا استفادوا هم منها سوى بخُرافات كُنت أبتدعها وادِّعاء علمٍ لا أؤمن به أو بقيمته رغم ما بلغته منه.

أنا لم أكن راغبًا في ذلك العمل الذي سأخدم من خلاله وطنًا لم أشعر بأنه خدمني! إذ كيف لي

أن أحلّ مشكلاته وقد تجاهل هو كلّ مُشكلاتي؟! كيف أَعالج عثراته وهو لم يُعالج يومًا عثراتي أو يتجاوز عنها؟! فما وجدته حقّق لي حلمًا واحدًا من أحلامي. حال بكل قسوة بيني وبين الكلية التي طالما تمنيت الالتحاق بها، فمنعني من مُباشرة العمل الذي كنت أعشقه، لأفقد كأثرٍ لذلك فرصتي في الاستقرار والزواج ممَّن أُحب! وها أنا أمتثل بعدها لقبول عملٍ لا أحترم طقوسه ومهامه، تحت رئاسة زميل لا يتميَّز عنّي سوى بانخفاض الطموح والاستسلام للواقع!

لست مُمتنًّا لهذا العمل وقد جاء بعد رحيل أبي الذي كان سيسعد به أكثر مني! وبعد فراق همْس التي انصرفت عنِّي بعد أن طال انتظارها له! لست قانعًا بمسيرتي العقيمة فيه وقد فقدت أهم هدفين كنت سأُحرزهما بقبوله! وما رأيت منه مردودًا يستحقُّ عناء احتمال أجراس تنبيه ذلك الهاتف اللعين كل صباح.

كُنت على وشك أن أتخذ قراري بترك تلك الوظيفة، لولا أن تخيَّلت سعادة همْس الغامرة إذا ما تقابلنا بعد يوم عملي الأول. كانت ستقفز لتحتضنني وهي تصيح بسعادة: (هذا هو رائف الذي كُنت أتمنّاه. الرجل الذي يستحقُّني). فأُجيبها بامتعاض وخيبة أمل: (لكن. صدِّقيني يا همس أنا غير سعيد بهذا العمل وأرغب في تركه). لتنظر لي نظرة استنكار وهي تلومني: (لا أحد يحكم على شيء من النظرة الأولى)، ثم تستدرك بابتسامتها الرائعة: (أنا فقط من ستقع في غرامه من النظرة الأولى. أما العمل؛ فيحتاج لبعض الوقت).

- أنا لا أمزح يا عزيزتي. أرى المكان بائسًا. أشعر بالغربة بين الزملاء. أفتقد الحماس لمشاركتهم في هذا العمل أو مجرد مناقشتهم في شؤونه.

- يا رائف. انتظر حتى تنخرط في الأحداث وتتفهَّم أجواء العمل. ستتعرف جيدًا على زملائك وطباعهم وأفكارهم. بالتأكيد هم أُناس عاقلون وما التحقوا بتلك الوظيفة إلا لأنها مُمتعة.

- لا أظن ذلك. أظنها الوظيفة التي أُتيحت لهم. لو عُرضت عليهم وظائف أُخرى لانصرفوا فورًا.

- وماذا عن أكرم؟ أليس هذا صديقك المتميز المتفوق؟ ألا يُردِّد عليك قولي ذاته؟

يغمر الفتور وجهي وصوتي وأنا أُجيبها: (أكرم لا يستطيع إلا مدح الوظيفة واستعراض مميزاتها بعد أن تورَّط فيها. هُوَ بالتأكيد يُخفي مللَه منها مؤقَّتًا إلى أن يجد الفرصة الأنسب لتركها. أنا أتفهّم ذلك)، ثم أنظر لها بشغفٍ وحُبٍّ مُردفًا: (ثم إنني ما كُنت لأكترث بتلك الوظيفة إلا لأجلك. رضا أكرم أو باقي الموظفين عنها لا يعنيني ولا يدفعني للتمسُّك بها!).

- ولأجلي ستستمر بها لتستكشفها. ستحاول خلال فترة الاختبار الإلمام بكل جوانبها، لنجلس معًا كل عطلة. نتناقش ونبحث إن كانت تستحق البقاء فيها أم إننا بحاجة للبحث عن وظيفة أخرى.

- لكنني... لكنني لن أستطيع الاستمرار طوال تلك الفترة. أنا أشعر بالقهر وقلّة القيمة بمجرد أن أدخل مقرّ العمل.

- ستُحاول لأجل خاطري يا حبيبي. أراها أول خطوة حقيقية ستُمكّننا من الارتباط الرسمي. بها سترفع رأسك أمام والدي وأمام الجميع. لذلك ستُحاول... لتُثبت حُبَّك وتمسُّكك بي.
- (باستسلام) حسنًا يا حبيبتي. سأُحاول لأجلك أنت.

* * *

وصلت المكتب كالعادة في آخر موعدٍ جائز، لتُعلن الساعة فور أن تلقَّف جهاز البصمة إبهامي بدء العمل. صادفت أكرم يمرُّ على الموظفين بالقسم، فألقيت عليه التحية، ثم أخبرته بأنني بحاجة لمساعدته، فطلب مني انتظاره بغرفة مكتبي.

جلست على مكتبي وأنا أُقلِّب أوراقًا ونماذج عملٍ فارغة، طُبِعَ بعض مُحتواها وتُرك البعض الآخر فارغًا لنملأه بأيدينا. لا أعلم لِمَ تصوَّرت أن حياتي كانت كهذا النموذج الذي كُنت أُصرُّ على ترك فراغاته دون ملء! اكتفيت بالمُعطيات الثابتة فيه. بدايات الأسطُر. العناوين المُشتركة بيني وبين الجميع. فلم أشأ الإضافة إليها بعملٍ يملأ صفحتي الخاصة أو بصمةٍ تعُود لي.

التقطت نموذجًا امتلأت فراغاته بتفصيلات إحدى الحالات ووضعته بجوار النموذج الفارغ. كان الأخير لا قيمة له. لذا كان مُلقىً على مُعظم مكاتب الزملاء، وعلى الأرجح سأجد منه نُسخًا عند الساعي ونادل المقصف لتقديمها لمن يطلبها. أما النموذج المُمتلئ فكانت قيمته بالغة. الاطّلاع عليه من الآخرين محظور. تَلَفُهُ مُكلِّف. فَقْدُهُ جريمة. خِلْتُ أن حياتي كانت قبل هذا العمل بالفعل جوفاء لا قيمة لها، وأنني بدأت الآن في ملء بعض سطورها بكلماتٍ - وإن كانت لا تُرضيني أو تُحقِّق طموحي - إلّا أنها ستظل الكلمات الأُولى العائدة لي في كتاب حياتي الفارغ. هنا فقط بدَأَتْ بعض الراحة تسري إلى قلبي ونفسي.

قطع شرودي حضور أكرم. رحبت به وطلبت منه الجلوس لمناقشته في بعض الأُمور. كان أولُها أنني بدأت قبل عطلة نهاية الأسبوع في ذلك الملف العاجل وسأعمل على إنهائه في أقرب فرصة. أما ثانيها فهو ذلك الملف ثقيل الظل الخاص بالطفل شريف. أوضحت له أنني زرت والديه وكانت النتيجة كما تصوَّرتها قبل الزيارة. قراءتي الأولية للملف لم تتغيَّر. امتعض أكرم مُشيرًا إلى أن ذلك أمرٌ وارد. لكن يجب ألا نأمن المُفاجآت. عرضت عليه أن أكتفي بما فعلت وأسطر التقرير النهائي في هذا الملف فنهاني عن ذلك، ونهض ليأمُرني - بلهجة الرئيس لمرؤوسه - بأن أقوم بما عليَّ وإلا ستتم مُحاسبتي بصرامة، ثم انصرف. لاحظت أن هذه الحالة بدأت تنتابه بكثرة مؤخرًا، فيتعمَّد أن يُذكِّرني بأنه رئيسي! سلوكه هذا يجعلني أُعاود التفكير كل مرة في الاستقالة! لكن آثرت الانتظار، فلعل ملفه الشخصي يُعرَض على مكتبي قريبًا!

شعرت ببعض الشجن، فالتقطت ملف الفتاة ميساء لأتخلَّص من ذلك الشعور. توقّعت أن نفسيتها قد هدأت بعض الشيء بمرور العطلة، وأن زيارتي التالية ستكون مُختلفة النتائج إذا ما أعددت نفسي لها جيدًا.

بدأت أتصفَّح مرجعًا التقطته بصعوبة من بين المراجع الموجودة بمكتبة العمل عن إعادة التأهيل النفسي للتائبين والمتعافين من الانحراف. التمست عدم ملاءمة مضمونه، فالتقطت آخر

عن انحرافات فترة المراهقة لأقلّب صفحاته. بالفعل وجدت فيه الكثير مما سيُساعدني فيما عزمت عليه من ضبط سلوك الفتاة وتقويم جنوحها ذاك. لاحظت أن دلوي في الزيارة السابقة كان حصيفًا وعاملًا جيِّدا لجذب انتباه الفتاة وإثارة اهتمامها وتشويقها لزياراتي التالية. يبدو أن حديثي العشوائي لا يخرج عن حدود ذلك العلم المُتراكم في رأسي بسبب درجة الماجستير التي أحرزتها.

وبعد أن أنهيت بحثي نهضت حاملًا الملف، وغادرت المكتب قاصدًا زيارتها.

وصلت إلى المدرسة لأجد المُشرفة تستقبلني بابتسامة وترحيب بالغَيْن، وأوضحت لي أن الأمور سارت على ما يرام حتى إن الأمر لم يعد بحاجة لحضوري.

استَنْكَرْتُ حديثها بشدَّة وأخبرتُها بأن الأمر ليس كما تظن، فدراستي لحالة الفتاة تُرجِّح لي أنها مُصابة بهوس السرقة المَرَضي، وهو أمرٌ في الغالب صاحبها منذ طفولتها، لكن والديها لم يُحاولا التدخُّل الإيجابي لتصحيح أفكارها، فهزَّت رأسها لتُخبرني بأنهما شديدا القسوة والعنف مع الفتاة، فأوضحت لها ثقتي بذلك، فالفتاة مُنكسرة إلى حدٍّ كبير.

أردفت لها بعد تفكير أنها بلا شك استلَّت قبل ذلك متعلّقات أُخرى من زملائها، لكن مرت دون فضحها، فنفت المُشرفة ذلك بتسرُّعٍ وثقةٍ لم تؤازرها طويلًا حين فحصت دفترها للحظات، ثم اعترفت بأنه بالفعل صدرت عدة شكاوى من طلبة فصل ميساء، ظلّت تنظر لي بحرج، فطلبت منها بفخرٍ مُصطنعٍ أن تُحضر الفتاة، ثم تنتظر بالخارج، فعلت ضحكتها، والتقطت عصيرًا من درج مكتبها، قدَّمته لي بودٍّ قبل أن تُغادر لتنفيذ طلبي.

كنت مُندهشًا من أنها لم تفطن لحالة الفتاة طوال هذا الوقت! ولِمَا توهَّمته من أن الأمر قد انتهى بهذا التحسُّن الطفيف والمُتوقَّع لحال الفتاة. يبدو أن تلك المراجع قد بدأت تؤتي ثمارها.

حضرت الفتاة بذات وجوم الزيارة السابقة، استقبلتها بابتسامة وسألتها عن حالها فلم تُجِبْ. كنت واثقًا بأنها تتعامل الآن بشكل طبيعي مع زملائها بفضل تلك المُعالجة التي ابتدعناها أنا والمشرفة في الزيارة السابقة، لكنها ستبقى خجولةً أمامي وأمام المُشرفة، وكذلك في مواجهة الساعي بيّومي بحُكم أن ثلاثتنا نعلم الحقيقة! لا بأس، علينا أن نُحاول تجاوُز هذا الأمر.

بدأتُ حديثي مُؤكِّدا لها أنها فتاة صالحة ولم تكن أبدًا تقصد ما حدث، صدرت منها نهنهة مكتومة كمن توقَّفت لتوِّها عن البكاء، فأخبرتها بأنها بخير، فالأمر ليس بهذا السوء، فتماسَكَتْ بعض الشيء لكن لم تتجاوب معي! فنَظَرْتُ تجاه نافذة الغرفة قليلًا، ثم أبلغتها بأنه من الخطأ الكبير أن تتوهَّم أنها لصَّة؛ فهي ليست كذلك على الإطلاق. ربما يكون حُب اطِّلاع. حُب تملُّك. من الراجح أن يكون الأمر محض شغفٍ بمُمتلكات الغير أو غيرةً منهم... أسباب كثيرة، وكلها لا تدعو للقلق.

بدأت الفتاة وصلة من البُكاء أوجعت قلبي! رغم أنّني أعلم أن ذلك من أثر الهرمونات الأنثوية التي تجعل بكاء الفتاة قريبًا في هذا العمر، فنهضت لأبتعد تاركًا لها براحًا من الهواء والحرية لعل

نفسها تستعيد استقلالها فتهدأ، توقّفت عند النافذة وأنا أَراقب ثلاثة طلبة يمرحون في الفناء. أحدهم كان يصيح في الآخرَيْن حتى كاد يتهجَّم عليهما. لمحت أيضًا طالبًا يجلس وحيدًا على إحدى الأرائك المتناثرة بالمكان. استدعيت ميساء لتقف بجواري فَفَعَلَتْ، سألتُها: (أتعلمين ذلك الشاب الذي يصيح؟) فأجابتني بصوت مبحوحٍ خافتٍ حاولت استجماعه: (إنه سامح).

- ولِمَ يصيح بهذا الشكل؟

- إنه شديد العصبية وعُدواني.

- حسنًا. إنه مريض. وماذا عن ذلك الجالس وحيدًا؟

دقّقت الفتاة النظر قبل أن تُجيب قائلةً: (إنه أدهم).

- لِمَ يعتزل باقي الزملاء؟

- (باقتضاب) هو يُحب ذلك.

- هو أيضًا مريض.

كانت ميساء تنظر لي باندهاشٍ مُتصاعد، فاستدرتُ وعُدت لأجلس حيث كُنت مُردفًا: (شاهدنا أربعة في الفناء، حكمنا على اثنين منهم بالمرض أو الخلل. فما بالك لو فحصنا باقي الفصول؟).

ظلَّت الفتاة تتنقَّلُ بنظرها بيني وبين النافذة التي ظلَّت واقفة عندها تُتابع زملاءها بصمت وبلاهة، فأَرْدَفْتُ مُتداركًا بصوتٍ ودود: (هُما ليسا بمريضين كما تبادر لذهنك يا آنستي. هما فقط لديهما انفعالات مضطربة. ناقصة أو زائدة. قد تُسبِّب لهما التورُّط في سلوكٍ إجرامي! مثلك تمامًا. أنتِ لست مُجرمة. سلوكك لم يكن نابعًا عن غريزةٍ إجرامية تُحرِّكك نحوه. إن قَبِلْتِ أن تصفيه بالمرض فسيكون كمرض هذين الشابين الجميلين. مرض من ذلك الصنف الهيِّن. لكن يجب علينا - وبحسبه مرضًا - أن نضع له حدًّا ونهاية، فذلك العصبي قد يتورَّط في مشاجرةٍ تقوده للعقوبة الجنائية، وهذا الهادئ قد يكون سلبيًا غير نافعٍ للمُجتمع، سيرفض التعامل مع الآخرين فينبذونه، وسيتورط في مشاكل جمة. أنت أيضًا يا ميساء، أخشى أن تتورطي في مُشكلة بسبب ذلك الهوس الذي لا يحتاج منك سوى الإرادة. جميعكم قد تتورَّطون في تصرُّفات مُعاقب عليها رغم أن أيكم لا تُحرِّكه دوافع إجرامية لارتكاب تلك التصرُّفات!).

كانت تتابع حديثي بعينين جميلتين لم يُشوِّه نظرتيهما سوى ذلك الانكسار الذي أقسم ألا يُغادرهما، فأقسمت في سرِّي ألا أستسلم له. أشرت لها بالعودة لتجلس أمامي وقُلتُ لها: (أريدك أن تتذكَّري دائمًا تلك اللحظة التي اكْتَشَفَت فيها تلك الفتاة اختفاء ساعتها. حين صرخت مُتسائلةً أين ذهبت. لقد شعر الجميع وقتها بمُغامرةٍ بوليسية وشيكةٍ في المكان، فاستحضروا مشاعر الاستمتاع بتفاصيلها، بينما تملّكتك أنت وحدك حالة من الرعب! على الأغلب هُم تندَّروا على أمر تفتيش الحقائب، أو صرخ بعضهم خوفًا من ضبط شيءٍ من ممنوعات المدرسة أخفاه بحقيبته كأدوات تجميلٍ أو هاتفٍ محمول، بينما كُنتِ أنتِ في عالمٍ موازٍ وحدك! قلبُكِ كان ينتفض ويقفز من مكانه

بهلع! مشاعرك كانت مُتضاربة في انتظار تلك اللحظة المشئومة وما ستُسفر عنه من فضيحةٍ وجُرسة! حين تُضْبَط الساعة في حقيبتك).

توقّفت عن الحديث حين انفجرت ميساء في وصلة بكاءٍ مريرٍ تعمَّدتُ هذه المرّة أن أستحضرها. أمسكت بملفي أتفحَّصه وأنا أزيدُها تأنيبًا: (أعلم أنها ليست المرة الأولى لك يا ميساء. أعلم أن أشياء كثيرة فُقدت من زُملاء فصلك وكُنت أنت وراء اختفائها! أعلم الكثير، وكل ما آمله هو أن تكون هذه المرة هي الأخيرة).

تحوَّل وجه الفتاة لحُمرة الدم، خشيت من بكائها المتواصل أن تُصاب بصدمة من صدمات الرُّعب فتحتبس أنفاسُها، فقلت لها بودٍّ شديد: (لا بأس يا ميساء. ستكون الأمور أفضل إذا ما استجبتِ لنُصحي. توجَّهي الآن لدورة المياه. اغسلي وجهك والتقطي أنفاسك، ثم عودي لفصلك فور أن تهدأ نفسك. اهتمِّي لدروسك، ولنا مُقابلةٌ أُخرى قريبة جدًّا).

قامت الفتاة وانصرفت مُهرولة.

لم تظهر المُشرفة، فشردت فيما كتبته بملفي، من المهم جدًّا أن يستحضر مريض هوس السرقة تلك الأوقات العصيبة التي عاناها عقب كل سرقة. ذلك الهلع الممزوج بالندم. تلك الصرخة التي لو كانت تحرَّرت من صدره لما عاد لتكرار فعلته، لكنه يكتمها بألمٍ مُضاعفٍ خشية الفضيحة، فتُعاود تحريك غريزته المقيتة، لتزداد حالته سوءًا.

كان عليَّ أن أستدرج تلك الصرخة من صدرها حتى أُحرّرها منها. وذلك لن يحدث إلا بعد أن تطمئنّ لي ولنيّتي في مساعدتها، وأن تُدرك أنني أُحاول مُعالجة ما حدث لها بقلب أبٍ أو قريبٍ مُهتمٍّ بحالها، وليس بأداء مُشرفٍ اجتماعيٍّ يُباشر عمله. من الضروري أن تثق بأنني بالفعل أُعاملها كشقيقتي سماح.

حضرت المُشرفة وهي تعتذر عن التأخير، إذ كانت تظن أن الجلسة الأخيرة ستمتدّ كالمعتاد. نظرت لها باستنكار سائلًا عن سبب إصرارها على إنهاء الجلسات، فابتسمت مستدركة أنها لا تقصد ذلك وإنما رصدت تحسُّن حالة الفتاة، فأوضحتُ لها أنها لو كانت رصدت تصرُّفات الفتاة السابقة لكُنت عوَّلت أنا على حدسها هذا. نظرت لي بعدم فهمٍ فأردفت أن حالة الفتاة تحسَّنت لأن الخطر قد زال، سُتِرَت الفضيحة والأمر انقضى، لكنها ستعود لسلوكها إن لم تتم مُعالجتها بالطريقة الصحيحة. طلبت منها مُحاولة التواصل مع والديها وترتيب لقاءٍ لي معهما، فنصحتني بأن أنسى هذا الأمر، فقد حاوَلَتْ مرارًا وتكرارًا التواصل معهما دون جدوى. هما لا يحضران إلّا في الكوارث والأزمات، ولا يكون حضورهما إلا وبالًا على الفتاة، حيث يُعنِّفانها ويضربانها بلا هوادة.

امتعضتُ من حديثها، وزاد إصراري على مُقابلة الوالدين إذ لن تَعْيَا حِيَلِي في الترتيب لها، ولو بمُساعدة المكتب إذا لزم الأمر. شكرتها على العصير الذي لم أقربه وتحرَّكت مُغادرًا المكان.

عدت للعمل في اللحظات الأخيرة لأَلملم أوراقي، وطلبت من عامل الهاتف الاتصال بالسيدة ريهام لتأكيد موعد المساء، ففاجأني بأنها بادرت بالاتصال وطلبت تأجيل موعد اليوم إلى الغد. تفاجأت بالأمر.. يا لها من خبيثةٍ تتعمَّد تعويقي عن إنهاء الملف الذي كُنت أشعر بسخافته.

ركبت سيارتي وقد أصابني الإحباط. كنت لا أرغب في العودة للبيت، اتَّصلت بأُمِّي وأخبرتها بنيَّتِي في تناول الغداء بالخارج. كتمت سمَّاعة هاتفي براحة يدي حتى أنهت صراخها، ثم شكرتها على قولها الذي لم أسمعه، وأنهيت الاتصال.

مررت على حاتي يُعجبني طعامه، وطلبت وجبتي المعتادة. أنهيتها لأطلب كوبًا من القهوة كنت أشربه في شرود، فقفز إلى ذهني أن شقيقتي قد أنجبت طفلًا جميلًا كذلك الطفل شريف، ثم استمرَّت خلافاتها مع زوجها أحمد. تصوَّرت أن التقرير الذي سأكتبه كان الفاصل بين شقيقتي وزوجها.

أنهيت القهوة دون أن تنتهي مشاهد قضية شقيقتي أو تُراوح خيالي، فطلبت أُخرى بتلقائية. تخيّلت شقيقتي ودموع التماسيح تنهمر من عينيها راجيةً أن تحتفظ بطفلها، فيُصرُّ أحمد على طلب الطفل لحضانته.

أعلم أن ما يفعله أحمد خطأ بسيط، لكنها لم تتمكَّن من تجاوُزِه! إنه ينال من كرامتها وكبريائها. يؤلمها ألمًا مُبرحًا. أدرت وجهي وكأنني أُوليّه شطر أحمد؛ لأسأله: لِمَ أنت مُصرٌّ على ذلك؟ لِمَ لا تتوقَّف عن ذلك العبث الذي علمت بالتأكيد أنه يُعذِّبها ويُعذِّبني ويُعذِّب أُمِّي! لِمَ هذا التصميم على سلوكٍ لن يختلف اثنان على كونه في أدنى صُوره خطأ؟ مهما فرضنا له النوايا أو المقاصد الصالحة سيظل خطأ! ماذا تنتظر من فتاةٍ تُحادثها على الهاتف بمشاعر مُصطنعة بينما لديك زوجة جميلة هي ملك يديك؟!

سدَّدت المبلغ المطلوب وغادرت وقد اشتدَّ الصُّداع برأسي. عدتُ للبيت لأدخل غرفتي وأبدل ملابسي ثم جلست مع أُمِّي. كانت تقرأ القرآن على روح أبي لحلول ذكرى وفاته. قبَّلت يديها ودعوت معها له. حضنتني وهي تبكي. ذكرت أنه كان شديد القلق عليَّ. أوصاها بالاهتمام بي. لقد كانت تتمنّى أن يبقى ليراني وأنا مُنهمكٌ في عملي الجديد ليفخر بي كما تفعل هي. ابتَسَمْتُ لها، فصارحتني بحنينِ أنها تشعر بأنه قد طال انتظاره لها. أبلغتها بأننا سنجتمع جميعًا في يومٍ محتوم، فدَعَتْ لي بطول العمر، وأَرْدَفَتْ أن هذا ما شعرت به، فأرادت توصيتي على شقيقتي سماح. لن يبقَ لها من بعدها غيري.

استجمعتُ قواي التي طالما كانت تخور في مواجهة مقذوفات صوت أُمِّي وداناته الثقيلة. لُمْتُها على حديثها ودعوت لها بطول العمر ودوام الصحّة. قبّلت رأسها ثم استأذنتها لبعض القيلولة، فابتسمت وهى تنهض قائلةً إنها بدورها ستفعل ذلك.

دخلت غرفتي وقد أصابني حديثها ببعض الفزع! فراق أبي لم يندمل جرحه في قلوبنا. لا أحتمل

مجرد تصوُّر المزيد من الفراقات. ارتميت على سريري.

مرّت ساعة دون أن يُراودني النوم. كالعادة. مشاعري مُفعمة بالطاقة المُمتزجة بالشجن، لكن زيارة اليوم أُجِّلت! ماذا عساي أن أفعل لأُخرج هذا الكبت؟

التقطت هاتفي لأتنقّل بين منصات التواصل الاجتماعي المُختلفة. مررت على الصفحات الخاصة بهمْس. كانت جامدة منذ افترقنا. لاحظت أنها لا تُحدِّثها أو تُشارك صورها كباقي الأصدقاء الذين يُتابعون استعراض فقرات يومهم بصور وفيديوهات حية. ما زالت آخر منشوراتها كما هي. كانت عبارة: (لا يوجد رجلٌ يحب العمل، لكننا نحب ما يمنحنا إياه العمل من اكتشاف لذواتنا. لحقيقتنا). كانت تُوجِّه تلك العبارة لي بالطبع. اتَّصلت بها ساعتها بعد أن لاحظتها لأقول لها: (حسنًا إنك بدأت تعترفين بأن أحدًا لا يُحب العمل).

- (بلوم) أنت تقرأ سطرًا وتترك سطرًا كعادتك يا حبيبي.

- عيناي لا تريان إلا ما أشعر به. وهما يطلبان مني الآن أن أراكِ!

- تعلم يا رائف أنني لتوِّي تسلَّمت عملي الجديد الذي يستهلك وقتي وجهدي.

- وأين حقِّي في ذلك الوقت؟ العمل يكون صباحًا فقط. عليك ألا تعتادي غير ذلك. أنا لن أسمح!

علت ضحكتها وهي تقول: (قد لا تُحبُّ العمل، ولكن آثاره الجانبية ستُؤثِّر عليك دون أن تنتبه. الإحساس بالمسئولية. الشعور بالقيمة. الرغبة في التميُّز... كل ذلك سيأخذ من وقتك وتفكيرك الكثير. صدقني يا رائف؛ حاول الالتحاق بأي عمل مُناسب وستلاحظ الاختلاف الشديد في شخصيتك و...).

- (مُقاطعًا) حسنًا... كُنت أعلم أن حديثنا سيأخذ هذا المنحى. انسي العمل. أبلغيني متى سنتقابل؟

- رغم أنني أُحب عملي؛ لكن لا أستطيع إنكار حبِّي الشديد لك ورغبتي الدائمة في رؤيتك.

- حسنًا يا حبيبتي. هل بالإمكان أن أراكِ الليلة؟

- بالطبع. سأُلاقيك في مكاننا المُعتاد بعد ساعتين من الآن.

أغلقت صفحة همْس، ثم نظرت للساعة بفتور وقلب موجوع. نهضت بعدها وتوجّهت للمطبخ وأعددت القهوة لعلّها تُعيد اتّزان رأسي ومِزاجي. حملتها لأجلس على مكتبي وأعبث بالملفات، فوقعت عيناي على ملف ذلك الشاب الذي تم إنقاذه بعد محاولة انتحاره. فتحت الملف. اسمه أمجد. طالعت صورته لأجده وسيم الوجه متوسّط الطول. أتمّ عقده الثاني قبل أيام. فبدلًا من أن يستعد للاحتفال بعيد ميلاده، قاده شيطانه للانتحار! التحليل كشف عن أنه كان تحت تأثير المخدرات أثناء محاولته تلك!

ما كل هذا البؤس أيها الشاب؟

تذكَّرت على الفور زميل دراسة كان قد انجرف إلى بئر الإدمان المُروِّع. جالسته كثيرًا لأردَّه عن غيِّهِ، لكنني بكل أسف فشلت. عليَّ هذه المرّة أن أُكرر مُحاولتي مع أمجد. لعلِّي أنجح!

كان زميلي ذاك من أصلٍ طيِّب. لا أدري أين هو الآن - حماه الله من شرِّ نفسه - لكن الأمر بالفعل صعب. لعنة الله على تلك المُخدِّرات التي فتنت العقول وأتلفتها، فزجَّت بأصحابها إلى نارَيْن لا مفرَّ من الاصطلاء بهما في الدنيا والآخرة، فضلًا عن نارٍ ثالثة تكتوي بها أُسرهم المنكوبة المكلومة!

لاحظت لوهلة أنني أجد لكل حالةٍ في ملفات عملي نظيرًا في حياتي الخاصة. بدأت أستحضر أحوال أقاربي لأجد أن الكثير منهم يُعانون من تلك المؤرِّقات. ما بين تفكُّكٍ أُسريٍّ غاب فيه ارتباط أفراد الأسرة وخَفُتت علاقاتهم، أو خلافٍ زوجيٍّ أوشك أن يصل لمحطة الطلاق، أو طفلٍ بائسٍ انحرف مُتأثِّرا بأصدقاء السوء.

بدأت أندهش من هذا العمل؛ أراه بالفعل مُسلِّيا ويقطع الملل والرتابة، فأجوب بواسطته بين حيوات الآخرين بحرية، ليس بقصد التلصُّص أو الانتهاك، ولكن بهدف المساعدة؛ لتقييم الأوضاع واختيار الأنسب لكل حالة.

قضيت ليلتي في قراءة ملف أمجد باهتمامٍ بلغ حدَّ اهتمامي بحالة صديقي القديم. بدأت أتوق لزيارته بقدر شوقي لزيارة تلك الفتاة التي أوحت لي رغم اختلافهما الشديد بطفولة شقيقتي سماح، ولرؤية ذلك الطفل شريف الذي تخيَّلتُهُ من ذات المُنطلق ابنها!

نمت هذا اليوم مُبكِّرا.

* * *

ابتسم أكرم فور أن رآني وأثنى على رابطة عُنقي التي انتقيتها اليوم باهتمام. لاحظ استعجالي على غير العادة للذهاب لمكتبي، فربت على كتفي وتمنَّى لي التوفيق.

جلست أُطالع تقارير زملائي بتركيز. لاحظت للمرَّة الأولى تفاصيل دقيقة لم تُميِّزها عيناي في قراءاتي السابقة، وما كُنت لأُميِّزها لولا انخراطي في العمل والزيارات المُتتابعة! يبدو أن النظرة الأولى دائمًا تخدع، أو من الراجح أن العين ترى بالقدر الذي يرغب صاحبها في رؤيته. بقدر ما يُمليه عليه ضميره وواجبه. وعيني اليوم مُختلفة. نظري ثاقب. اقتنصت هذا الأمر لأراجع ملف ميساء. طلبت ملفين يخُصَّان حالتين سابقتين وردتا للمكتب بظروفٍ مُشابهة. قرأت ما أثبته الزملاء، فأدركت أنني لم أنحرف كثيرًا عن مساراتهم، لكن قرَّرت في نفسي أن أُحقّق من النتائج ما لم يُحقِّقُوه.

نهضت وحملت الملف مغادرًا لإجراء زيارةٍ جديدة، ومررت في طريقي بعامل الهاتف؛ لتأكيد موعد زيارة السيدة ريهام، فلم أُغادره حتى قام بتأكيده معها.

وصلت للمدرسة في وقت راحة طلبة المرحلة الابتدائية، لأجد الفناء وقد اكتظَّ بالتلاميذ الذين مررت من وسطهم كمن يخوض غمار بحرٍ هائجٍ تتدافع أمواجه لتلطمه. كنت أصدُّ وأتلقَّف أجسادهم المُندفعة باستمرار قبل أن تصطدم بي. لم أستطع أن أرى حذائي، لكن خمَّنت أن لونه قد تغيَّر لألوان عديدة بفضل كل فنانٍ شارك في دهسه بريشة قدمه أثناء ركضه!

دخلت مكتب المُشرفة لتستقبلني استقبال الجندي العائد من الحرب، ساعدتني في نفض ما علق بسترتي من غُبارٍ تعدَّدت مظاهره وألوانه، فاستعدت بعض وسامتي التي كُنت مهتمًّا بها حين غادرت منزلي صباحًا على غير العادة!

أخبرتني المُشرفة أن هذا الوقت هو الأنسب للزيارة، فستبدأ راحة المرحلة الثانوية بعد خمس دقائق، ولن تتعارض مقابلتي لميساء مع وقت الحصص. خبرٌ هوَّن عليَّ ما تعرَّضت له من عُدوان، وأخبرتها بحماس أنه سيكون موعدي المُنتظم، فتدلَّى فكُّها وهي تستنكر نيَّتي في إجراء المزيد من الزيارات. نظرت لها بضجرٍ دون أن أُعقِّب. فأخْرَجَتْ من درج مكتبها عبوة عصيرٍ وضعتها أمامي. ابْتَسَمْتُ وقد لاحظت أنها ذات العبوة. يبدو أنها فطنت لعدم استحساني لهذا النوع من العصائر، فقرَّرت الاحتفاظ بالعبوة لتقديمها لي كل مرة طالما عزمت على أن تتكرَّر زياراتي! نوع من التوفير الخبيث المُغَلَّف بالشياكة والكرم! ذكَّرتني تلك العبوة لوهلة بزهرة السكرتيرة التي تجوب مكاتب قسمنا يوميًّا لتوزيع الملفات والتكليفات ثم تعود لتستقرَّ بكوبها الممتلئ حتى منتصفه ببعض الماء العَكِر.

قامت المُشرفة لدعوة الفتاة للحضور، وقبل أن تتحرَّك صرَّحت لي بصوتٍ تقطَّعت أوصاله

بسبب ضحكة - كانت تُحاول كتمها منذ وصولي - أنّ بإمكاني إن عاودت الحضور في هذا الموعد استخدام الممر الجانبي الموازي لسور المدرسة بدلًا من قطع الفناء والتعرُّض لمثل هذه الحادثة، ثم أفرجت عن ضحكتها العابثة وهي تعبر الباب.

حضرت ميساء ونقرت الباب المفتوح. رحبت بها ودعوتها لتجلس أمامي كالعادة. جَلَسَتْ دون أن تنظر للأرض هذه المرة، فحمدت الله لكونها لن تُلاحظ ما حلَّ بحذائي. سألتها عن أحوالها فأجابت بأنها تشعر بارتياحٍ كبيرٍ منذ بدأنا جلساتنا. فاجأتني الفتاة بردِّها الإيجابي الرقيق. قُلت لها بتلقائية ولهفة أن ذلك أسعدني أيضًا كثيرًا.

بدأت أُقلِّب أوراقي برضًا تسرَّب إلى نفسي، ثم استفهمتُ منها إن كان والداها شحيحين معها أو قصَّرا في الإنفاق عليها أو في توفير طلباتها يومًا، فأجابتني بابتسامة حييَّة أن ذلك يحدث أحيانًا. فأوضحت لها أن شُحَّ الوالدين - إن وقع - فالابن لا يملك حياله سوى التبرير والتقدير. لا يجب أن ينال ذلك من احترام الوالدين ولا يُبرِّر اعتراض الابن وامتعاضه؛ فالوالدان لا يدِّخران مالًا ولا جُهدًا لإسعاد أبنائهما، لكن أحيانًا تعوقهما القدرة المادية، ربَّما يقلُّ تقديرهما لأهمية الشيء المطلوب أو يُرجِّحان عدم الاحتياج له. يريانه تزيُّدًا غير جوهري أو يخشيان عدم مناسبته لابنهما بصفة خاصة. على الابن دائمًا أن يحترم هذه الأسباب، سواءٌ جهر بها الوالدان أو أخفياها، فما أوجع أن يضطر الوالد للتصريح والجهر بضيق ذات يده. علينا ألا ندفعه لذلك أو نوجعه. هزَّت الفتاة رأسها بإيماءةٍ فهمت منها قبولها واقتناعها بما قُلت، فابتسمت وأنا أقول لها: (حدِّثيني الآن عن علاقاتك بزملائك).

- أصبحت الأمور طبيعية تمامًا والحمد لله. لم يعد أحد يتحدَّث عن الموضوع.

- لا أقصد ما فهمتِهِ يا عزيزتي. أنا أقصد في العموم.

- أنا لست من المؤمنين بصداقات المدرسة. أحسبها دائمًا مؤقَّتة. لي صديقة أو اثنتان مُقرّبتان فقط. علاقاتي بالأُخريات محدودة.

صمتت الفتاة أثناء ما كُنت أتفرَّس وجهها لأعبر ملامحه السطحية على أملِ أن أغوص في أعماقها فأرصد مصدر حديثها. لكن صمتها قطع رحلتي، فعدت أدراجي سائلًا: (وبماذا تؤمنين إذًا؟).

- لي صداقات كثيرة خارج المدرسة. لي من الجيران صديقات. لي أيضًا صديقات في النادي الذي أتردَّد عليه. أُحبُّهم وأهرع إليهم كل أسبوع.

- وماذا عن الأصدقاء؟ أراك ما أوردْتِ لهم إشارة!

تحوَّل وجه ميساء للحُمرة الشديدة فجأة. فرَّت بعينيها بعيدًا قبل أن تُجيبني: (ليس لي علاقات مع شباب يا أستاذ). فتداركت باهتمام قائلًا: (أنا لا أقصد علاقات من أي نوع لا سمح الله. أتحدّث عن الصداقة فقط).

- لا هذا ولا ذاك.

- لماذا؟

- إنه محظور. أنا فتاة. لا يصح أن أصاحب الشباب من الجنس الآخر أو أتحدَّث معهم. الأمر يتعلَّق بالشرف.

كان حديثها صادرًا عن قناعاتها أول الأمر. لكن سرعان ما انزلقت مُتتبعًا ما رصدته من مُفرداتٍ كان مصدرها كبتًا تكلَّس في زاويةٍ من رأسها، فَرَضَه عليها والداها، إذ تعلّق بجوارِهِ لافتةً تُقرأ: (ليس في هذا الأمر جدال!).

قد يكون غرضُهُما صحيحًا، لكن تحقيقه لم يكن بذات القدر من الصحَّة. يجب على الفتاة أن تُكوِّن شخصيتها لتحمي نفسها بنفسها، ومن منطلق عقيدة واقتناع ينمو لديها بحدود علاقاتها مع الجنس الآخر، مرويًّا بالتربية الصحيحة والتفهُّم لحدود الدين وعادات المجتمع وتقاليده. لن يستقيم الأمر أبدًا ببناء جدارٍ سميكٍ يحوطها، فما أسهل نقر ذلك الجدار - وإن طال أجله - لاستطلاع ما وُوري خلفه. المُعالجة تكون بالنشأة الصحيحة وتهذيب الفطرة التي عادةً ما تكون سليمة وصالحة. يجب ألّا يُسلب من فتاةٍ في هذه السن عقلها في بعض المسائل، ليتولَّى الوالدان إدارتها دون مشاركةٍ منها، وإلا جاء الوقت لينتفض عقلهًا رافضًا السير إلا في الاتجاه المُعاكس لاستكشافه. الممنوع دائمًا مرغوب!

(أين أنت يا أُستاذ) تساؤلًا قطعت به ميساء صمتي، فانتبهتُ لها وأجبتها بنبرة اهتمام: (كنت أتمنّى أن أسمع منك أن لك زملاء من الذكور. تُعاملينهم بندية عقلٍ واحترامٍ مُتبادل. لا أنصحُك مُطلقًا بالتورُّط في أي علاقاتٍ خاصة، فأنا أثق بأن نهاية تلك العلاقات بائسة، فمشاعر سنِّ المُراهقة ليست صادقة بالقدر الكافي. لكن عليك أن تستكشفي في الجنس الآخر عقله وتفكيره. أن تلتمسي في زميل إخلاص ناصح. أن تضطري لمواجهة مُستهترٍ يخطب العبث معك بكلماتٍ صارمةٍ حازمةٍ تردعه وتردُّه لحدوده. تُعيد إليه صوابه. أنتِ الآن في مرحلة تشكيل شخصيتك. في مُقتبل عُمرك. ربما هي سنواتٌ قليلةٌ وستُواجهين مُعترك الحياة. وستُطلبين للخِطْبة ثم الزواج. ربما ستُخفقين في تقييم ذلك الزوج المُنتظر! ستجهلين من أي زاويةٍ تستكشفيه! سترتبكين من مجرد الحديث معه أو مناقشته، فكيف ستصير الأمور؟).

تنهَّدت الفتاة وأجابت بمرارة: (أنا بالفعل أخشى الحديث مع زملائي الذكور. فصرت أتجاهلهم حتى اعتادوا اجتنابي، لكنهم يتنمَّرُون عليَّ. لقد أطلقوا عليَّ صفات مُخجلة تصيبني بالبكاء كلما تذكَّرتها أو سمعتها تتردَّد في أي مناسبة ولو لم تكن مُوجَّهة لي).

- هذا التنمُّر جريمة. لقد أَخْطَأْتِ بعدم إبلاغ أحد المُشرفين عنها؛ للتعامل مع من ارتكبها بصورة حاسمة. لكن ما أرجوه الآن هو ألا تهابي الحديث مع زملائك من الذكور أو مُجادلتهم، عُدِّي عُدَّتَكِ قبل أن تشرعي في ذلك. أَعمِلِي تعاليم دينك وخصوصيتك التي تفرضها عليها فطرتك

وطبيعتك كفتاة ناضجة، لاسيَّما وأنك جميلة.

- (بخجل شابه خوفٌ شديد) لكنني أخشى أن يشي أحدهم لوالديَّ فتقوم قيامتي!

- لوالديك عليك حق. حسنًا. أتسمحين لي بمُقابلتهما؟

- (ردَّت بفزع) لا. أرجوك. لو علما بما حدث...

- (مُقاطعًا) لا يا عزيزتي. لن تكون المناسبة هي تلك الواقعة التافهة. أرى أنهما غير مُلمَّيْن ببعض الأمور، وأودُّ مناقشتها معهم.

- وبأي مناسبة ستُقابلهم إذًا؟

كانت الفتاة تتواصل معي باهتمام ودون خجل. لمحت في عينيها رغبتها في أن أقابل والديها، ورُعبها من الشيء ذاته! كُنت أُفكِّر في الحُجَّة المُقنعة لمقابلتهما فلم تُسعفني أفكاري. ما سيطر عليَّ هو أنني تمكّنت بالفعل من كسر كل الحواجز التي كانت لتعوق حديثي مع الفتاة. اكتسبتُ ثقتها، فطَلَبَتْ عوني. فقلت لها: (بالفعل سأحتاج لترتيب مناسَبةٍ تُبرر هذه المُقابلة). ونظرت من النافذة فوجدت الطُلّاب ينحسرون من الفناء، فأردفت لها: (سأتدبَّر الأمر، وسأُخبرك بما أصل إليه في الزيارة القادمة. عليك الآن العودة لفصلك لمتابعة دروسك).

قامت الفتاة وقد لمست في نفسها انفراجات مُقارنةً بمُقابلتنا الأولى. كانت سعادتي لتكون بغير حدودٍ لولا ذلك الشجن الذي كُنت أسمعه واضحًا في صوتها. هي بحاجة لمُساعدتي أكثر ممَّا كُنت أتوقَّع! سألتني عند الباب عن موعد الزيارة التالية، فقُلت لها إنها ستكون قريبة أيضًا. فانْصَرَفَتْ.

حضرت المُشرفة بوجهٍ عابثٍ زاعمةً أنها استمتعت بجلسةٍ رائعةٍ تحت أشعَّة الشمس على مِقعد الساعي الموجود أمام باب غُرفتها! استقبلت مُزاحها بابتسامة وأنا أُقدِّر لها تفانيها في العمل! ثم قدَّمت لها عبوة العصير بعد أن رشقت قصبة الشُّرب «الشفَّاط» في منفذها قائلًا لها: (تفضَّلي سيدتي، فأنت بحاجة لاستعاضة ما فقده جسمك من الماء)، فتلقَّفتها مني بابتسامة وبدأت في امتصاص رحيقها، بينما غادرتُ أنا المكتب عابرًا الفناء الذي أصبح صحراء جرداء.

ركبت سيارتي وعدت للعمل في ساعته الأخيرة. مررت على زميل؛ لمُناقشته بشأن رغبتي في مقابلة والدَي الفتاة. فأخبرني ببساطةٍ شديدةٍ أن من حقِّنا المرور على أي شخص أو استدعاءه في إطار استطلاعات الرأي التي نُكلَّف بها.

أعجبني الأمر جدًّا. اكتشفت أن الدولة بالفعل عظَّمت دور المكتب ومكَّنت له. كان اعتقادي قبل ذلك خاطئًا! عُدت لمكتبي لإنهاء بعض الأعمال المكتبية الروتينية، حتى انتهت ساعات العمل دون أن أنتبه لها، فأمضيت ساعةً إضافية وأنا مُنهمك في كتابة تقرير طلبه أكرم في نهاية الدوام، فلم أعترض ولم ألُمْه على ذلك كعادتي.

عدت للبيت مُنهكًا من العمل. تناولت وجبتي مع أُمِّي ثم خلدت لنومٍ لم أشهده في الأيام الماضية. يبدو أن النوم لا يأتي إلّا لمن يحتاجه، أو بالأحرى لمن يستحقّه. لمن جدَّ في عمله فاستحقّ مكافأته.

أمَّا من يقضي يومه في اللهو والتنظير فلن يَرَاهُ إلّا قليلًا!

استيقظت واحتسيت قهوتي سريعًا وأنا أُراجع ملف ذلك الطفل. شريف. حتى حفظت ما فيه عن ظهر قلب، فالتقطته وغادرت مسرعًا. الوقت كان يُداهمني.

ذهبت هذه المرة بسيارتي. كان فرد الأمن مغايرًا لذلك الذي قابلتُه في زيارتي السابقة، ردَّدت له سبب حضوري كسابقه، ففعل هو ذات ما فعله سابقه حتى خرجنا من المصعد لنجد السيدة ريهام في انتظارنا أمام باب شقَّتها. كانت ملابسها عادية جدًّا كالمرة الأولى... هل أسأتُ بها الظن لتلك الدرجة؟!

امتثل فرد الأمن لطلبها بالنزول بعد أن طلبتْ منه ذلك؛ لوجود والدتها معها بالشقَّة، ثم أغلقت الباب وجلست في مواجهتي متسائلةً عمَّا عساي سأسأله لابنها، أوضحت لها أنها أسئلة روتينية عن أسلوب حياته. ما يُريحه في إقامته معها وما يُزعجه. ما إذا كان سيُفضّل البقاء معها أم الانتقال للإقامة مع والده... أسئلة من هذا القبيل.

امتقع وجهها واكتست جبهتها بذرَّات عرقٍ كان الطقس بريئًا منها، فأرجعتها لخوفها من مُقابلتي للطفل. وهو ما أفصحت به حين صرَّحت باستنكار أن هذه المسائل تفوق سِنَّ الطفل وإدراكه، فأجبتها بسماجة بأنني حاصل على درجة الماجستير في علم الاجتماع وسأُدير النِّقَاش بكفاءة. ظلَّت جالسةً والقلق يعتصر قلبها وكأنني أنا من سيُصدِر الحكم وليس المحكمة. اضطررت لأن أُطمئنها بأن هذه المقابلة لن تحسم أمر الطلب بقدر ما ستكشف بعض خلفيَّاته. ظلَّت جالسة في صمت حتى حسبت أنها تحاول كسب الوقت لتقوم والدتها بتلقين الطفل ما سيقوله حتى يحفظه، فاستشاط غيظي وطلبت منها بحسم إحضار الطفل فورًا وإلا انصرفتُ وأثبتُّ امتناعها عن ذلك. نظرت لي بغيظٍ شديدٍ قبل أن تقوم وتذهب لإحضاره.

عادت السيدة وفي يدها الطفل. كان يرتعد وكأنه مُقبل على ناظر مدرسته الذي سيُعاقبه على فروض سنةٍ مرَّت دون أن يؤدِّيَها. تباطأ في خطواته الأخيرة فقمت واقتربت منه بابتسامة لأقول له: (اسمي رائف. تشرّفت بمعرفتك)، فهزَّ رأسه ببراءة دون أن ينطق.

الأمر كان جديدًا عليَّ. انعقد لساني. تمنيتُ لو أن والدته نسيت أمر الماجستير الذي أخبرتُها عنه وتدخَّلَت لمساعدتي في استجداء حديثه الذي لم أجد لاستمالته إليه سبيل، لكنها ظلَّت تراقب الأمر في صمت ليمرَّ الوقت ثقيلًا.

طلبت من الطفل الجلوس بالقرب مني فامتثل. تذكَّرت حلوى الشوكولاتة التي هداني عقلي لإحضارها في طريقي، فالتقطتها من جيب سُترتي وقدَّمتها له آملًا أن تلقى استحسانه. نظر لوالدته التي أومأت له بقبولها، فالتقطها من يدي ووضعها بجانبه.

الطفل كان بالفعل حييًّا وبالغ الهدوء. لا أذكر إن كان ذلك - ضمن فصول دراستي - من أوجه الاستواء أم الاعتلال النفسي نسبةً إلى سِنِّه، لكنني رجَّحت أنه قد يكون ذلك هو الهدوء الذي يسبق

عاصفةً ستهُبُّ من مشاعره لتُطيح باطمئناني وتنسخ كل معتقداتي ودراساتي. لعلّ وقوف والدته في المكان قد أخَّر قيامها. كان بالفعل مُقيَّدا لحريَّتي أنا شخصيًّا، فطلبت منها تركنا وحدنا قليلًا.

تابع الطفل والدته بنظره حتى غابت عنه، ثم نظر إليَّ بقلق كاد يدفعه للبكاء. كان عليَّ أن أفكَّ عقدة لسانينا بأيِّ حوار يُخرجه من مشاعر الترقُّب تلك، فسألته إن كانت الحلوى أعجبته، فهزَّ رأسه بما يُفيد الإيجاب. فوعدته أن أُحضر له منها كلَّما حضرت لزيارته، فكرر هزَّ رأسه. التقطت أوراقي من جانبي وبدأت أفحصها باحثًا عن بداية حديثٍ مُناسبٍ سرعان ما أدركتُها، فسألته بابتسامة ودودة: (والدك يرغب في استضافتك. فهل ترغب أنت في ذلك؟).

- لا بأس.

- أفهم من ذلك أنك ترغب.

- لا. لكن هو لن يتركني لأمِّي... هكذا قال لي.

- ولم يرغب هو في ذلك؟ أتظن لأنه يُحبُّك أكثر منها؟

- هو يقول ذلك أيضًا.

- وبماذا تشعر أنت؟

عاد شريف لصمته ولم يُجِب. الأمر لامحالة صعبٌ على من هم في مثل سِنِّه. سُحقًا لتلك الظروف التي تستدعي استدراج طفلٍ في الحديث ليُقرِّر مصيره! هو لا يعي مصلحته ليتم الاحتكام له أو الاعتداد بتقييمه. هو بالكاد ميَّز نوع الحلوى الذي يُفضِّله. أعدت النظر له وسألته مرة أُخرى: (هل ترى أن والدك يُحبُّك أكثر من والدتك؟).

- أُمِّي هي التي أعيش معها منذ ولادتي.

- ولكن... لوالدك حقٌّ عليك.

- بإمكانه الحضور والعيش معنا إن أراد... هو لا يُريد ذلك.

- بل هو يُريد، لكن أمرًا حدث بينه وبين والدتك جعل إقامته معكما صعبة.

- هو قال لي إنه طلّقها لسببٍ لا أفهمه! قال إنها خانته!

وكأن الطفل صفعني صفعةً شديدةً هوت على وجهي، فاهتزَّت لها خلجات قلبي ومشاعري قبل صَدْغَيَّ. هل أخبره والده بهذا الوصف الفجِّ؟ كيف له أن يفعل ذلك؟ ماذا لو سأل الطفل مدرِّسيه أو زملاءه في المدرسة عن معنى هذا اللفظ؟ ماذا لو صرَّح لأحد أقاربه به؟ مهما كانت صدمة الأب شديدة، فإن ذلك لا يُبرِّر له ما قاله للطفل.

التقطت أوراقي وكتبتُ هذه العبارة فيها لأتذكّر أن أُوَبِّخَهُ عليها، ثم نظرت للطفل بحنانٍ شديدٍ وقلت له: (لا تُردّد هذه العبارة مرة أخرى لأي شخص. عدني أن تنساها، فهي تحمل معاني كثيرة سيُسيء الآخرون فهمها. عِدْني بذلك).

- أعدك. أمِّي طلبت مني ذلك أيضًا.

- أحسنت أيها الطفل المُطيع. حسنًا. هل ستكون سعيدًا بإقامتك مع والدك؟ لكن... فكّر جيدًا. اعلم أنك ستُبرّر لي إجابتك.

- لا... لا أُريد. أريد أن أبقى مع أمِّي وجدَّتي. فهما يُحبّانني أكثر من أي شخص.

- كيف تأكَّدت من ذلك؟

- أظن ذلك؛ فوالدي لا يهتمّ لحضور تلك الزيارات الأسبوعية المُحددة لرؤيتي.

فتحت ملفي وأنا أتساءل مستنكرًا: (كيف ذلك؟ هل خدعتني عيناي؟. كان مُثبتًا في صحيفة الدعوى أن والدة الطفل تمتنع عن إحضاره في المواعيد المُحدَّدة للرؤية). فحصت بعض الأوراق لأجد أن موعد الرؤية كان في الثانية من ظهر كل يوم الجمعة، فسألت الطفل: (متى تذهبون لمقابلة والدك؟)

- في يوم الجمعة.. فور أن تنتهي جدَّتي ووالدتي من الصلاة.

- (متفاجئًا) الصلاة؟! (أردفت وأنا أُطالع الملف): أين تذهبون؟

- النادي الاجتماعي بالحي.

كانت الإجابات مُطابقة للموعد والمكان المُحدَّدْين لرؤية الطفل. ورد بالأوراق أن شهودًا من موظفي النادي وعامليه أكّدوا أن الوالد يتواجد في مواعيد الزيارة دون أن يحضر ابنه. بيد أنني أكاد أجزم بأن هذا الطفل لا يكذب. إنه يتحدَّث ببراءة وتلقائية. لم أجد الجرأة لسؤاله عن أخلاق والدته. ذلك السؤال الوقح الذي كُنت عازمًا أن أطرحه عليه لولًا أن ذهني كوَّن لها من واقع مقابلتها وحديث الطفل عنها صورةً طيِّبة.

ما هذا التناقض؟! لقد بِتُّ أشكُّ في كل شيء.

اقتربت من الطفل وقبَّلت رأسه، وصرَّحتُ له بالعودة لجدَّته وبدعوة أمِّهِ للحضور، فالتقط حلواه وانطلق مُنهيًا تلك المقابلة الثقيلة على قلبينا، وقد نجح بجدارة - رغم صِغَر سنّه - في قَلْبِ أفكاري رأسًا على عقب.

حضرت السيدة والقلق قد تملَّك منها، فأخبرتها بأن المقابلة تمَّت على خير وجه، لكن استأذنتها في طرح سؤالٍ أخيرٍ عليها، فرحَّبت، فسألتها عن ذلك الشخص الذي اتَّهمها زوجها بخيانته معه. امتقع وجهها ونظرَت صوب الأرض، ثم أجابتني بصوتٍ خافت: (حسنًا. إنه ابن خالي. طبيب نساء وتوليد. ذهبت لعيادته عدة مرَّات بسبب أعراض مَرَضِية أصابتني...).

- (مُقاطعًا) إذا كان الأمر مُبرَّرًا بهذا الشكل، فما سبب ما حدث منه؟

- سبق أن تقدَّم لي هذا الطبيب للزواج. كان ذلك قبل زواجي من مدحت، لكنني رفضتُه؛ فعلاقتي بمدحت بدأت منذ التحقنا بالجامعة.

- عذرًا؛ فالمُهندس مدحت ما كان ليشك في الزيارة لو كانت بهذه الصورة.

- الزيارة لم تتجاوز هذه الصورة، لكنني كما أخبرتك سابقًا. مدحت خائن. والخائن يرى الجميع

خونة مثله. هذا كل ما في الأمر.

لملمت أوراقي في عُجالةٍ وقد عجزت عن الفهم. أبلغتها بأن الأمر سيقتضي مقابلة أخرى معها ومع الطفل بعد يوم أو اثنين، ووعدتها بأن أُبلغها باتصال هاتفيٍّ قبل حضوري بوقتٍ كافٍ، فرحَّبت بذلك ورجتني أن أحكم بالعدل، فابتسمت لها مُوضِّحا أنني لا أحكم على الإطلاق، لكنني عزمت بعد مقابلة هذا الطفل على أن أتحرَّى صحَّة ما أكتبه، ولو ضاعفت لأجل ذلك وقتي ومجهودي في بحث ملفه. ابتَسَمَت ابتسامة شاحبة وهي تقودني للمغادرة، بينما كانت مشاعري تتغيَّر مع كل خطوةٍ أخطوها تجاه الباب.

ركبت سيارتي وتحرَّكت وعقلي غارقٌ في أفكاره. مَن فيهما الصادق؟ ومَن المُخادع؟ مَن المؤتمن على هذا الطفل المسكين؟ الذي شعرت بأنه بدأ يتأثَّر بتلك الظروف التي فُرضت عليه. بدأت مشاعره تتمزَّق بين والدين لم يكترثا يومًا بمشاعره. أحدهما أخطأ في حقِّ الآخر. أحدهما ظَلَمَ الآخر. ما زلت لا أعلمه. لكن كل ما أعلمه أن الطفل هو من سيدفع الثمن. أكاد أُميِّز علامات الاكتئاب وقد بدأت تُهاجمه بضراوة. نظراته مُفعمة بالخوف والشرود وعدم الأمان. عواطفه وانفعالاته مرتبكة.

وصلت للبيت فوجدت أُمِّي قد نامت.

اتَّصلت بسماح لأطمئنّ عليها. كانت غاضبة مني لتجاهل اتصالاتها المُتتابعة، فشرحت لها أن عملي بدأ يتزايد ويستدعيني ليلًا ونهارًا. فترة الاختبار شارفت على الانتهاء وأكرم نبَّهني لسوء وضعي. فتَمَنَّت لي التوفيق. سألتها عن أحمد، فقالت لي إنه ما يلبث أن يُصالحها إلا وتضبط على هاتفه تلك المُحادثات السخيفة التي بدأت تؤرِّق نومها. رجتني أن أُساعدها إن كان لي في ذلك حيلة. امتقع وجهي. طلبت منها الصبر والثبات، ووعدتها بالتدخُّل في أقرب فرصة؛ لمواجهة زوجها بما يفعله لإيقافه عند حدِّه، أشْعَرَها حديثي ببعض الغبطة والأمان اللذين غلَّفا نبرتها. مجرد شعورها بأنني سأُناصرها روَّح عنها وأزال بعض آلامها. ردَّدتُ عليها ألّا تقلق وتترك لي مُعالجة الأمر، ثم أنهيت الاتصال.

كانت المرّة الأولى التي أنضمُّ فيها لصفِّ شقيقتي، وأعدها بالمساعدة بعد مرَّاتٍ عديدةٍ كُنت ألومُها على شكواها وأُبرّر لأحمد أفعاله وأصفها بالطبيعية! لا أدري أي منطقٍ ذلك الذي كان يحكُمُني وقتها! من الجائز أنني كنت أنتظر منه التعقُّل فخيَّب ظني. عزمت الآن ألّا أتجاهل هذا العبث الذي فاق حدَّه.

اكتشفت أن كثيرًا من أحكامي على الأشياء كانت بلا منطق ولا عقل. كانت ردودي بشأنها تفتقر إلى التفكير المُسبق. وجهة نظر كنت أُستسيغها رغم شذوذها، وأُعلنها طالبًا من الجميع احترامها والاحتذاء بها. لم أنتبه إلى أن البعض كان يراها جنونية جانحة إلَّا حين تأمّلتها أنا شخصيًّا ووجدتها لا تمتُّ للعقل أو الصواب بِصِلة! يبدو أنني سأحتاج قبل النطق برأيي في أمرٍ ما أن أتأمَّله

جليًّا، وأَقلّب جوانبه في عقلي قبل أن أَفصح به. لاسيّما بعد انتمائي لعملي الجديد.

تذكّرت كم نبَّهتني همْس لعيبي هذا! كان ذلك بمُناسبة عزوفي عن العمل وازدرائي له رغم أن ارتباطنا كان مُتوقِّفًا عليه. سألتني ذات مرَّة باستنكار (ألن تنضُج يومًا يا رائف؟)، فسألتها بسخرية: (وما مواصفات هذا النُّضج الذي تدَّعينه؟)، فأجابتني وهي تُشير بسبَّابتها لرأسي: (الأمر مقرونٌ بتشغيل عقلك. ستلمس مظاهره حين يَرْقَى حديثك ليحترمه الآخرون ويُقدِّروه).

كُنّا نتسكَّع ذلك اليوم على كورنيش النيل بعد أن أنهت مُحاضراتها بالجامعة، وأنهيت أنا إحدى المُحاضرات التمهيدية للماجستير الذي كُنت قد التحقت به. تلفَّتُّ للمارَّة والباعة الجائلين بتأمُّل، ثم علت ضحكتي فجأة وأنا أُجيبها مُداعبًا: (أنت أنانية. تُريدين أن تسمعي مني ما يروقك. أخبرتك أنني أُحبُّك. أليس هذا كافيًا؟).

- لا يا رائف. ليس هذا ما أقصده. أنا فقط أُريد أن أرى عقلك في حديثك. أن أرى تطابقًا بين قولك وفعلك... إنني أتعجَّب منطقك كثيرًا! أحكامك وأولويَّاتك مرتبكة!

- أنا لن أفتعل ذلك النُّضج الذي تدَّعينه!

- أُريد أن أطمئنَّ عليك يا عزيزي. أُريد أن أفتخر بك.

- لا عليك. أنا أفتخر كثيرًا بمواقفي وحديثي الصادر عن قناعاتي ولن أُبدِّلَه. وستعلمين يومًا أنني كُنت مُصيبًا.

كانت تطرق بنظرها في حُزنٍ ويأس، ثم تقفز لتقِف فجأة أمامي لتُواجهني وتسألني: (لماذا تدَّعي الطيش؟ أنا أُراهن على أنك رزين ولا تؤمن بما تقول. أنت متفوِّق ولتوِّك بدأت دراسات الماجستير).

- ما التحقتُ به إلّا لأُريح والديّ. (واستدركت بابتسامة) ولأُرافقك رحلة الذهاب والإياب من الجامعة.

- هذه مُبرِّرَات مُضحِكَة. غير واقعية بالمرَّة. لا يُردِّدُها عاقل.

- هذه هي مُبرِّراتي التي لا أجد غيرها يا همْس. أنا مُقتنع وسعيد بها بالمناسبة.

- ستكتشف يومًا كم كُنتَ طائشًا، وستندم كثيرًا على ما فاتك.

قالت ذلك بأسى قبل أن تعود للسير بجانبي في صمت.

ليتني أصل إليها الآن لأُبلغها أنني فهمت قصدها، وأنني بالفعل نادمٌ على ما فاتني أشدَّ الندم.

* * *

مررت على أكرم فور أن وصلت للعمل، وقصصت عليه نتائج زيارة أمس. أخبرته بانبهاري، فقد كانت انطباعاتي بعد كل زيارةٍ جديدةٍ تتبدَّل إلى حد التضادِّ مع تلك التي هيَّأتْها لي الزيارة السابقة عليها! ذكرت له أنني أصبحت كالكرة التي يتقاذفها جميع الأطراف، ولا أدري أيُّهم سيتمكَّن من إحراز الهدف، فرجَّح لي أنني أنا من سيُحرزه. ابتسمت واستأذنت منه في العودة لمكتبي، فصرَّح لي بابتسامة ودٍّ.

دقائق قليلة جلستها على مكتبي قبل أن يمر عليَّ شابٌّ التحق حديثًا للعمل بمكتبنا، فوجئت به يطلب نُصحي. كدت أضحك وأنا أُخبره بأنني آخر من يطلب منه ذلك! فأنا أحدث الموظفين بهذا العمل - عداه طبعًا - فأوضح لي بحرج أنه ما أن صارح أكرم بأن هذا العمل لا يتوافق مع ميوله أو يُلبِّي طموحاته حتى وجَّهه لمقابلتي شخصيًّا.

وضعت قلمي على الطاولة، ونظرت للشاب باسمًا لأقول له مُستدركًا: (تلك هي الحالة الوحيدة التي تستدعي مقابلتي يا...) فردَّ بلهفة: (عماد... اسمي عماد).

دعوته للجلوس، فجلس وهو ينظر لي بإنصات. فقلت له: (أتعلم يا عماد أن ذلك كان شعوري لبضعة أشهرٍ مضت؟ منذ أن حضرت لهذا المكان!) وأسندت ظهري لمسند مقعدي وأنا أُردف: (لم أكن مُقتنعًا بالعمل أو بقيمته... سيطر على رأسي وقتها أنه عمل روتيني).

هزَّ عماد رأسه تصديقًا على حديثي هامسًا بأسى: (إنه بالفعل كذلك)، فنظرت له باستنكارٍ ظاهر، فأردف بقلق: (أنا لا أقصد الإساءة. غاية الأمر أنه لا يستهويني. كُنت أطمح في أن أُصبح مُهندسًا).

ابتسمت بتلقائية وقد ولَّت عيناي تجاه النافذة وأنا أُجيبه: (أنا بدوري كان لي حُلمٌ آخر. أردتُ أن أكون طبيبًا شرعيًا)، ثم عُدت بنظري إليه مُردفًا: (كان ذلك طموحي الذي سيطر على رأسي. لكن الأمر اختلف جذريًّا فور أن انخرطتُ في هذا العمل. زالت تلك المشاعر تمامًا عن نفسي. بل زالت أغلب اهتماماتي لتنحسر في تلك الملفات التي تراها أمامي. لقد انشغلت عن أُمِّي وشقيقتي! أقلعت عن كُلِّ عاداتي حتى كِدت أُصبح وأُمسي ولا شاغل لتفكيري سوى ملفات العمل).

قطع حديثنا حضور عامل المقصف، فطلبت منه إحضار عصيرٍ طازجٍ لنا، ثم أردفت لعماد: (أنصحك بألا تتسرَّع في حُكمك، فالأيام والشهور الأولى شديدة الرتابة. سيقتصر دورك فيها على متابعة زملائك القدامى في صمتٍ وعدم فهم. ستظن أن ما يسطرونه محض عباراتٍ رنَّانةٍ مصدرها خيالهم ووحي أفكارهم، لكنك حين تصل لنهاية فترة الاختبار ويحلُّ وقت تثبيتك في الوظيفة، ستنقلب كل موازين عقلك، ستُباشر العمل الجاد لتكتشف أن الواقع بعيدٌ كل البُعد عمَّا كُنت تتصوره. ستجد مُتعةً بالغة. كما سترصد ما في الأمر من سحر حين تُلاحظ أن لكل حالة معروضة

عليك صديقًا أو قريبًا في ذات الوضع أو في وضعٍ مُشابه. ستُفاجأ وقتها بخطورة هذا العمل الإنساني وحساسية آثاره، وستحمل همَّ كل كلمةٍ ستكتُبها في تقاريرك، لدرجة أنك ستُراجعها ألف مرة قبل تقديمها).

شكرني عماد على الوقت الذي استقطعته له وهو ينهض عازمًا العودة لأكرم، فطلبت منه أن يشرب أولًا العصير الذي أحضره العامل في تلك اللحظة.تناول عماد العصير وهو يشكر الساعي، فسألته مُداعبًا عمَّا إذا كان ذلك الحب العُذري الذي استهدفنا جميعًا في تلك السنة الحاسمة هو ما منعه من إحراز المجموع اللازم لدخول كلية الهندسة، فتبدَّلت ملامح وجهه وهو ينفي صحَّة تخميني، ليقول بوجوم: (والدتي تُوُفِّيَت قُبيل الاختبارات بأيام).

فاجأتني إجابته التي لم أتوقَّعْها، فاعتذرت له قائلًا: (آسف. البقاء لله. تعلم أن هذا مكتوبٌ لا خيار فيه ولا يصحُّ عليه الاعتراض). تنحنحت وأردفت: (علينا ألا ننظر للماضي بكل ما يحمله من أوجاع، وأن نتحمّس للمُستقبل ولا ننشغل إلا به.. أعتذر مرة أُخرى).

بقي عماد صامتًا حزينًا بعدها، فقمت ودُرت حول مكتبي لأقف بجواره، ثم قُلت له بحماس: (أتعلم أن والدتك ستكون في مُنتهى الفخر حين تراك تُباشر عملًا شريفًا كهذا، ينفع الناس ويقضي حاجاتهم؟)، وربتُّ بيديَّ على كتفيه مُستطردًا: (عليك أن تُبرهن على حبِّك لها من خلال هذا العمل. عليك أن تبذُل حبَّها كُلَّهُ في خدمته، فهي بالتأكيد تُراقبك الآن وقلبُها حزينٌ على ما تظن أنها تسبَّبت لك فيه من إحباطٍ وألم. عليك أن تُثبت لها أنك راضٍ وسعيد بقَدَرِك).

وضع عماد كوب العصير وهو يُحاول التغلّب على شجنه. شكرني على النصائح ووعدني بأن يُحاول تنفيذها بحذافيرها، وأضاف أنه يتمنّى أن يكون مُساعدًا لي في يومٍ من الأيام، فشكرته لطِيبِ شعوره. انصرف وعيناي تُتابعانه بألم، ورجوت ألا أكون قد بعثت آلامه وأحييتُ مواجعه.

عدت لأجلس على مكتبي. كان الوقت قد تجاوز ذلك الموعد المناسب لزيارة ميساء، فقرّرت تأجيلها للغد. بقيت في المكتب حتى أنهيت مُطالعة بعض المذكّرات والتقارير الموجودة عليه، ثم غادرت بنهاية الدوام.

عُدْت للبيت في موعدي، التقط أنفى روائح الطعام الشهي وأنا أصعد الدرَج، لأتفاجأ بأحمد وسماح قد حضرا للغداء معنا. كانت مفاجأة سارة. تناولنا الغداء واستمتعنا بالحديث حتى بدأت أُمِّي وسماح في رفع الصحون من على السفرة، فقمنا أنا وأحمد الذي استأذنني في أن يُدخِّن سيجارةً في شرفة غُرفتي. تلك العادة اللعينة التي سأطلب من سماح أن تُخطِّط في أقرب فرصة ليُقلع عنها.

بعد أن تجاذبنا بعض أطراف الحديث حول العمل والحياة؛ فاتحت أحمد في ذلك الأمر الذي يؤرِّق سماح. اندهش من حديثي كثيرًا، وصاح قائلًا: (ماذا تقول يا رائف؟ أنت تعرفني جيِّدًا).

- نحن صديقان قبل زواجك من سماح بسنوات طويلة.

- لذلك أحسبك مُخطئًا في مُجاراتها والانقياد لحديثها. أنت تعلم أنني لستُ خائنًا.

- إنها تُلمِّح بهذا الأمر كثيرًا يا أحمد وأنا أتجاهلها. أنا شقيقها الوحيد والأكبر، إن لم تلجأ لي، فلمن ستلجأ؟

- بإمكانك تنبيهها لشططها وسوء ظنِّها!

- صدِّقني. لقد حاولت تبرير موقفك لها وتسفيه الموضوع في نظرها المرَّة بعد المرَّة، لكنها لم تقتنع. عقلها لا يستوعب هذا الأمر ويأبى أن يُمرِّرَه. لا أُخفيك سرًّا أن عقلي بدوره بدأ مؤخَّرا ينبذه ويستهجنه. أشعر أن آثارًا وخيمة قد تقع إن استمر الأمر على ذات الوتيرة، فالضغط لا يأتي إلا بانفجارٍ سيطال الجميع.

كان أحمد مذهولًا من أوصافي المُبالغ فيها، ظلَّ ينظر لي بدهشة، فأردفت له قائلًا: (أنا أُطالع في عملي كل يومٍ مشاكل ومآسي. أرى أزواجًا ينفصلون بسبب مكالمة هاتفية واحدة... أشكال الخيانة متعددة ولا حدود لها. تكون بالنظر أو بالسمع أو بالحديث أو حتى بالتلميح. بل تكون أحيانًا وهمٌ هيَّأته بعض الإشارات! وَقْعُها على الطرف الآخر - في كلّ صُورها - واحد.. ألمها مرير، وعواقبها وخيمة.

كان أحمد ينظر للأرض بشرود، فاستطردت: (أرجوك أن تُقلع عن تلك العادة ولو لأسبوع واحد، وستكتشف كم هي سخيفة ولا تستحقُّ كل هذا الألم الذي تُعانيه سماح. لا تُصر على أمرٍ لن تجني من ورائه سوى الشقاق وخراب البيت).

- أنت تعلم أنني...

قلت مُقاطعًا لأرفع عنه الحرج:

- تفعل ما يفعله مُعظم أصدقائنا. لكنه خطأ يا أحمد. خطأ. فقط تأمَّله بعقلك للحظات.

- أعلم يا رائف أنه خطأ، لكنني لا أرتكبه بتلك الصورة المُستمرة. ثم إنه ليس بتلك الفداحة.

- بل هو فادح. ربَّما السلوك هيِّن وبسيط. لكن التقييم يكون بقياس آثار السلوك وليس بالسلوك ذاته. وآثاره أراها وخيمة، لذلك أنتظر منك مراجعة موقفك.

بعد بعض التأمُّل قال لي: (أعدك بأن أتوقَّف عن ذلك. أعدك بأن أفعل من أجل سماح، ومن أجلك).

ارتاح قلبي كثيرًا بعد ما سمعت. كُنتُ واثقًا من أنه سيعمل على الوفاء بوعده. تملّكني الفضول لأن أُخبر أمي وشقيقتي بما أنجزته، لكن آثرت إرجاء ذلك. اكتفيت بنظراتٍ تبادلتها مع سماح عندما عُدنا للجلوس معهما، ولاحظت أنها فَهِمَتْ مغزاها جيِّدا، فأرسلت لي بامتنان قُبلةً في الهواء وهما يُغادران.

بعد وداعهما دخلت أمِّي لتستريح من يومها الشاق، فعدت لغرفتي لأحاول بدوري اقتناص ساعة من النوم قبل أن أبدأ رحلة المساء.

حين استيقظت وجدت أمِّي تُشاهد التلفاز، فأعددت كوبًا من الشاي ثم عدت للغرفة. جلست على

المكتب أَطالع ملفاتي. كنت قد فقدتُ حماسي لاستكمال زيارات ملف الطفل شريف. لمِست أن عليَّ الترويِّ في دراسة حالته قليلًا، فالأمر يبدو لي شديد التعقيد وخيم الآثار إذا ما شاب تقييمي لحالته أي خطأ.

فتحت ملف الشاب أمجد. كان مُدوَّنا به أنه مُحتجز بمصحَّة لعلاج الإدمان. سَطَرَ أكرم على الغلاف عبارة: (المطلوب عمل تقرير عن مدى صلاحيته الاجتماعية وليس النفسية. بمعنى آخر؛ هل هو صالح أم مختل اجتماعيًّا، وهل سيتورَّط في أي تجاوزات أو مشاكل مع الآخرين؟).

استثارني الملف فقررت بدء العمل فيه، قرأت كل ما ضمَّه من أوراق ومذكِّرات بتركيزٍ شديدٍ حتى تشبَّعتُ بالحالة. يبدو أن أمجد مريض وليس مُجرمًا كما كُنت أظن.. تهيّأ له أن المخدِّرات كانت سبيله للهروب من ظروفٍ عاناها، فسلك طريقها حتى تملَّكت منه وقادته لهلاكه، لولا أنهم أنقذوه في اللحظات الأخيرة وأودعوه المصحَّة.

طالعت عددًا من الأبحاث التي كُنت قد أعددتها ضمن رسالة الماجستير عن أسباب الإدمان ومخاطره على الشباب، وحين استشعرت جاهزيتي؛ قمت بتبديل ملابسي وانطلقت قاصدًا المصحَّة.

كُنت أُحدِّث الشاب في خاطري طوال الطريق... عزيزي أمجد... كنت قبل أيام أشعر بأن الدنيا لا تستحق العناء. كنت أبغضها مثلك تمامًا! لكن تبيَّن لي أن الأمر ليس كما اعتقدتُ! عليك تجربة أمرٍ مختلف. بالقطع لا أعني المخدِّرات، وإنما أعني أن تبحث عن ذاتك، فحين تُميِّزُها ستُميِّزُ جمال الدنيا وبهجتها. قبل ذلك ستنخدع. صدقني. أنا كُنتُ مثلك.

عبرت باب المصحة الكائنة على كورنيش النيل بذلك الحي الذي كان هو ذاته منطقة سكن أمجد. قادني أحدهم إلى غرفته التي وجدت أمامها حارس أمن أبدى لي التوقير ومكَّنَني من الدخول له بعد الاطِّلاع على كارت وظيفتي الذي كنت أستهين به، فاكتسب بعدها بعض احترامي.

كانت يدا الشاب مُكبَّلتين بشاشٍ طبيٍّ غليظ في جانبي سريره. التَفَتَ لي بوجهٍ شاحبٍ جافٍّ اختلف كثيرًا عن وَجهِهِ النضر الذي رأيته في الصورة. ألقيت عليه التحية وأنا ألومه بتلقائية صديقٍ قديمٍ على ما فعله بنفسه. اقتربتُ من عينيه لأجد مُقلتيهما وقد تحوَّل لونهما الأبيض إلى لونٍ أصفرٍ داكنٍ تقاطعت خلاله شعيرات دموية مُنتفخة داكنة وغليظة. هيئتُهُ كانت مُخيفة وقابضة للنفس. يا إلهي. كيف تمنيتُ يومًا أن أكون طبيبًا شرعيًّا؟! أحمد الله أنني لم أوَفَّق في ذلك.

فتحت ملفي لأُقلِّب صفحاته باهتمامٍ مُصطنعٍ لأستردَّ رباطة جأشي، نظَّمت أنفاسي وحاولت استجماع تركيزي. ما زلت مُتوتِّرا بعض الشيء. لقد تأخَّر الحارس في إحضار القهوة التي أوصيته بطلبها وإحضارها لي! حضوره قد يمنحني بعض الشعور بالأمان.

أخذت شهيقًا ملأت به صدري قبل أن أزفره لأبادر الشاب قائلًا: (أمجد. أنت شاب ناضج ومن أسرة مُتيسِّرة الحال. تسكن هذا الحي الجميل وتتردد على ناديه الاجتماعي الراقي. بالتأكيد لديك

أصدقاء ومعارف مُميَّزون) وصمتُّ قليلًا وأنا أتابع انفعالاته بتركيز، وحين لاحظت ثباته وهدوءه أردفت: (قرأت ملفك مرةً بعد المرة فلم أجد سببًا واحدًا لما فعلتَه بنفسك سوى الجنون، وهو أمر استبعدته حين رأيتك، فأردت أن أسمع منك أيَّ مُبررٍ آخر لم يفطن له عقلي!).

التفت أمجد إلى الجانب الآخر من الغرفة، حيث تعلّق نظره بسريرٍ طبِّي فارغٍ إلّا من حقيبته وقد تناثرت ملابسه حولها، وكأنها أوحت إليه بما آلت إليه نفسه من فوضى وشتات. علا صوت أنفاسه وكأنما كان على وشك أن يبكي، فقلت له بودٍّ: (لا تجزع يا أخي. دعني أحكي لك أمرًا. كان لي صديقٌ قديمٌ زاملني في الدراسة لعدة سنوات. أحببته وارتبطت به، لكنه انزوى وجافاني فجأة أنا وكل أصدقائه، واكتشفنا بعدها أنه انجرف إلى طريق المخدرات! تمامًا كما فعلت أنت! افتقدناه كثيرًا. أنا فعليًّا لا أعلم أين هو الآن، لكنني أطمح من حديثك أن ترشدني للوصول إليه. حين تُوضِّح لي ما هي نهاية هذا الطريق).

نقر الباب ليدخل الحارس وبيده كوب القهوة، ليُبادرني بأن الطبيب يُحذِّر من أن يشرب منها أمجد ولو رشفة واحدة، فهو يتلقّى علاجات تتعارض مع مادة الكافيين. وعدته بذلك مُعربًا عن أنها بالكاد تُوفّي احتياجي، فضلًا عن أنني لست ممّن يتشاركون مشروباتهم مع الآخرين. تردَّدت في أن أطلب منه البقاء معي، لاسيما وقد لمست هدوء أمجد، فاكتفيت بالتأكيد عليه أن يبقى بالجوار لأطلبه عند الحاجة، فوعدني بذلك.

انصرف الحارس لأنظر لأمجد وأنا أُتابع حديثي له: (الأيام ليست مُتماثلة. يمرُّ بعضها يسيرًا مُبهجًا، والبعض الآخر يكون قاسيًا عصيبًّا، ولولا هذا الأخير ما شعرنا ببهاء الأول. لذا يجب ألّا نتعامل مع أحد القسمين من مُنطلق أنه سيدوم. علينا أن نستمتع بالأيّام الطيِّبة ونهنأ بها، وأن نتحمَّل الأيام المُرَّة حتى تمضي، فليس بأيدينا إدامة الأولى ولا إنهاء الثانية، الأمر في كليهما مؤقت! أتفهم ما أعنيه يا عزيزي؟).

لم يكن أمجد حتى هذه اللحظة متجاوبًا. بدأت آيس من الأمر، فكرت في إنهاء الزيارة، لكن كُنت سأحكم بالفشل على الزيارات التالية إن فعلت. أنا بالكاد تماسكت. بدأت أستحضر حديثًا جديدًا أستقطبه به للتفاعل معي. فتحت الملف لأُقلِّب فيه علَّه يُسعفني بحديث. لكن أسعفني أمجد ذاته حين نطق قائلًا: (أنا لا شيء. أنا أتفه من أن تُخاطبني بهذا الحديث. حياتي خاوية)، ثم صمت مرة أخرى. أدركت أنه الشعور بالدونية واحتقار النفس! النقص أو العجز العضوي أو النفسي أو الاجتماعي بطريقة أثَّرت على سلوكه. هذا شعورٌ متعدِّد الآثار! منه ما يحُثُّ صاحبه لتعويض هذا الشعور بالنبوغ وتحقيق الذات، ومنه ما يدفعه للتعصب والانكفاء والجريمة. يبدو أن حالة أمجد تندرج ضمن فروع هذا النوع الأخير.

قلَّبت أوراقه فلم أجد في أوصافه الجسدية أي عجزٍ عضوي، فأدركت أن نقصه كان شعوريًّا بحتًا. اقتربت منه هامسًا: (أتعلم يا عزيزي أن كل إنسان يولد ولديه البعض من هذا الشعور؟

الشعور بالنقص؟ هذا ما قرَّره الطبيب النمساوي «ألفرد أدلر»، وراهن على أن ذلك الشعور سيدفعك للعناية بنفسك والتكيف مع البيئة! سيُحفِّزك لتطوير قدراتك. لم يظن أبدًا أن يصل بك الحال إلى ما وصلت إليه!).

رشفت رشفةً من القهوة قبل أن أقول له مُستدركًا: (بل إن هذا الطبيب كان يحسب أن شخصًا في وضعك الاجتماعي هو مُحَصَّنٌ إلى حدٍّ ما من آثار هذا الشعور. أتفهم ما أقول؟) ظل الشاب صامتًا، فتابعت: (ورغم كل ذلك، أرى أن مشاعرك هذه يا صديقي تكشف عن سلامك النفسي وتواضعك. تقديرك المُبالغ فيه للمُحيطين بك على حساب نفسك، وهذا الأمر وإن كان مشكورًا لك إلّا أنني أراه يستحق إعادة النظر).

بدا من نظراته أن كلمةً توقَّف عندها عقله فلم يتجاوزها. سرعان ما أفصح بها وهو ينظر لي بطرف عينه مردِّدا بدهشة: (صديقك؟). فابتسمت له مردفًا: (هذا إن قبلتَ أنت؛ فأنت شخص جدير من كافة النواحي بأن تكون صديقًا أفتخر به. كثيرون من يتمنَّوْن صداقة شابٍّ مثلك. شعورك ذاك هو عيبك الوحيد! الشيء الوحيد المُنفِّر في شخصيّتك. سيجعلك تفرض على الآخرين فكرة أنك أقل منهم رغم أنك لست كذلك! فتثبت الفكرة بأذهانهم ليُصدِّقوها رغم زيفها).

حضر المُمرِّض هامسًا لي بأن الطبيب أوشك على الحضور لمتابعة حالة أمجد، فرشفت ما تبقّى من القهوة وأعطيته الكوب للتخلُّص منه تماشيًا مع تحذير الطبيب، والتمست منه إمهالي دقيقة واحدة، ثم انتبهت لأمجد وقلت له: (عِدني بأن تنفض هذا الشعور عن عقلك؛ فهو الذي يمنعك من الانخراط في صداقات الآخرين. الوحدة مُمرضة. مواجهة مواقف الحياة تحتاج لأصدقاء مُخلصين يمدُّونك بالنصيحة والعون. الأمر بسيط. راجع نفسك. حالتك هذه - إن جاز وصفها بالحالة - لم تكن لتستدعي منك الرقدة مُقيَّدا في المصحة أو تناول كل هذه العقاقير المرصوصة بجوارك. هي لم تكن تستحق جنوحك للمخدرات مُطلقاً).

ظل أمجد صامتًا بائسًا. كنت شغوفًا للاستماع له أكثر من الحديث إليه، لكن الوقت لم يُسعفنا! الحالة التي يدَّعيها شاع لها -من فرط بساطتها- العلاج السلوكي، أما علاجاتها الدوائية فكانت محدودة!

اقتربت منه وأخبرته بأنني مُضطرٌّ للمُغادرة، وسأحضر له في زيارةٍ أُخرى. وحتى يحلُّ موعدها طلبت منه طلبين؛ أولهما أن يتغلَّب على ذلك الشعور ويمحوه من عقله تمامًا. أن يؤمن بأنه شخص صالح ينقصه ما ينقص غيره من البشر. أما الثاني فكان أن يفتح لي قلبه في الزيارة القادمة. أن يبوح لي بِسِرِّه لنكون حقًّا صديقين.

غادرت الشاب وأنا غير واثق إن كانت حالته ستستدعي زيارةً تاليةً أم أكتفي بما استنبطته من هذه الزيارة، فانفعالاته لم تكن تُنذر بأي خطر اجتماعي منه. خطره الأكبر كان على نفسه. صادفت فرد الأمن عند خروجي من الغرفة، فألقيت عليه التحية ثم غادرت المكان.

عدت للبيت واستلقيت في فراشي ونظرات ذلك الشاب لا تُفارق مُخيّلتي. عيناه أوحتا لي بأن وراءه قصة كبيرة، امتلأتُ شغفًا لمعرفتها.

* * *

استيقظت اليوم مُتأخِّرا كثيرًا عن موعدي المُعتاد. فاتّصلت بأكرم وأخبرته بأنني لن أتمكّن من إثبات حضوري للعمل في الموعد الرسميّ، فقال لي: (لا عليك. عملنا ليس له وقت مُحدَّد، ونحن نُباشر مهامه على مدار اليوم، بل ونعمل في العُطلات إن اقتضى الأمر ذلك، لكن أنصحك أن تستغل اليوم لإنجاز أي زيارة من زيارات العمل... الوقت ضيِّق كما تعلم).

- أنا بالفعل عازم على زيارة ميساء بعد أن أتناول إفطاري. زيارة قد تكون الأخيرة، كما أرغب في زيارة والد الطفل شريف مساءً لأحسم موقفي وأكتب تقريري بشأن ملفه.

- رائع. أتمنّى لك كل التوفيق. لكن انتبه.. لا تتسرَّع أو تُصرِّح لأيّهم بأنها زيارتك الأخيرة، فمن المُمكن أن تكتشف عند كتابة التقارير ما يقتضي إجراء المزيد من الزيارات.

- هذا بالفعل أفضل. سألتزم بذلك.

أنهيت الاتصال ثم اتّصلت بالمهندس مدحت وأحطتُه بزيارتي هذا المساء، فرحب بها مُصرَّحا بودٍّ بأنه سيكون في انتظاري على أحرَّ من الجمر.

التقطت ملف ميساء وطالعته أثناء إفطاري. كان ما دوَّنته من ملاحظات في الزيارات السابقة قد أجَّج حماسي لرؤيتها. لاسيما أنني قد تمكَّنتُ بفضل الزملاء من تدبير تلك المُناسبة التي كُنت أبحث عنها لتبرير مُقابلة والديها. فبدَّلت ملابسي فور أن انتهيت من الإفطار، ثم أعددت حقيبتي، وجلست مُنتظرًا أُمِّي التي كانت تستعد لزيارة خالتي، فوعدتها بأن أُقلَّها في طريقي.

ظهرت أُمِّي تحمل حقيبتها الصغيرة، فالتقطتها منها وتحرَّكنا لنقضي وقتًا لطيفًا في الطريق لخالتي، استمعتُ فيه لنصائحها التي لا تملُّ تكرارها، ولدعائها الذي لا أملُّه بصوتها العذب الصافي. حتى وصلنا لبيت خالتي، فودَّعتها بقبلتين على وجنتيها ودعوتها للاستمتاع بالوقت، وأوصيتها بالاتصال بي حال رغبتها في العودة للبيت لأمرَّ عليها.

بعد أن أشارت لي من شرفة خالتي، تحرَّكت قاصدًا مدرسة ميساء. صففت السيارة أمامها، ثم عبرتُ بابها بحماس.

كان بالكاد موعد راحة الفتاة كما كنت أرجو. سلكت ذلك الممرَّ الذي نصحتني به المُشرفة في الزيارة السابقة حتى وصلت لغُرفة مكتبها بسلامٍ وأمان، ووجدتها تجلس على مقعدٍ أمام بابها، فابتسمت لها قائلًا: (الأمر إذًا لم تكن له علاقةٌ بيِ)، فضحكت لتُرحِّب بي وهي تقول: (التعرُّض للشمس أمرٌ ضروري لصحَّة الجسم والنفس).

التقطت مقعدًا من داخل الغرفة لأضعه بجوارها وأنا أقول باسمًا: (صَدَقتِ. أخشى أن هذا هو أول حديث منطقي وعاقل أسمعه منك)، فنظرت لي بابتسامة لائمة، فأُردفت بودٍّ: (أنا أُقدِّر دورك المهم في المدرسة، لذلك سأُقدّم لك بعض النصائح بالمجَّان، ودون حاجة لأن تطلبي ذلك رسميًّا من

المكتب) فاتسعت ابتسامتها وهي تدعوني للبدء، فطلبت منها إرجاء ذلك ليكون بعد الانتهاء من مُقابلة ميساء، والتي يجب أن نُجريها خلال فترة راحتها؛ كيلا تفقد المزيد من دروسها، فهبَّت مُسرعةً وهي تؤيِّد حديثي آملةً أن تجد الفتاة في فصلها كالعادة.

صفعتني كلمتها العابرة تلك، فأضمرتها في نفسي وأنا أدعو لها بالتوفيق.

حضرت ميساء بخُطى متسارعة، فطَلَبْتُ منها الجلوس مكان المُشرفة لنستمتع معًا بأشعة الشمس، فاستجابت لطلبي بابتسامة، سألتُها: (أَوَجَدَتْكِ المُشرفة بالفصل أم اضطرَّت للبحث عنك؟).

- كنت أقف أمامه.

- ولم لا تُشاركين زميلاتك فترة الراحة في الفناء لتستمتعي بهذا الجوِّ الصحو؟

- لا أُحبّذ ذلك.

- لكن بقاءك بالفصل خطر يا عزيزتي!

- (بدهشة) وما الخطر في ذلك؟

تنهَّدت وقد كُنت آمل ألا أعود للحديث عن تلك الواقعة لولا مُلاحظة تلك المُشرفة التي خرجت عفوًا منها دون أن تُدرك قدر خطورتها. نظرت للفتاة بإصرار وقُلت لها: (حسنًا. أنا ألتمس سعة صدرك يا فتاتي. المثل الشعبي ينصحُنا بألّا نضع الكبريت بجوار الغاز كيلا يشتعل. نحن جميعًا بشرٌ ولسنا ملائكةً مُنزَّلين من السماء. أنا شخصيًّا لديَّ من العيوب ما يندى له الجبين. جهاد النفس مطلوب على الدوام ولو كُنّا من الأخيار الصالحين. البُعد عن مَواطن الريب والشُبهات والاستقطاب هو أول مُسبِّبات النجاة).

كان انتباه الفتاة وشغفها لسماع حديثي فائقًا، فأردفت لها: (أُلاحظُك في زياراتي تتعمَّدين ترك باب الغرفة مفتوحًا. وأتفهَّم السبب الذي دعاك لذلك وأحترمه، لكنني أُميِّز أنه من وحي نصائح والديك اللذين لا أُريدهما أن يكونا المصدر الوحيد لإلهامك. القياس واجبٌ عليك وأنتِ في هذه السن، فلن يَجِد المرء من والديه الخبرات الكافية لمواجهة كل تجارب الدنيا وشرورها).

التقطت أنفاسي وأنا ألمح عينيها فوجدت منهما إصغاءً فأردفت: (أعلم علم اليقين أن ما وقع منك لن يتكرّر. خُصوصًا بعد أن مسَّتك تلك النار التي فاقت حرارتها سِكِّين أُمِّي المتوهّجة. نظرة زملائك لكِ كانت ستستحيل حياتك معها إلى جحيم. فتكرهي المدرسة والدروس، ويكتشف والداك الأمر لتتضاعف الأزمة وتتفاقم التداعيات).

أخرجت قلمي وبدأت أُعبث به على ورقة فارغة أخرجتها من ملفي وأنا أقول للفتاة: (أنا لا أحترم من يقع في مأزق ولا يتعلَّم منه درسًا واحدًا أو يُعيد حساباته بعده. لن أُعيد حديثنا عن تقديري لذلك الهاجس الذي دعاك لما فعلتِ، ولكن أنتِ ما فعلت ذلك إلا في لحظة ضعفٍ وتهوُّرٍ كان من ضمن أسباب تهيُّؤها لكِ أنك وجدتِ نفسك وحيدةً في الفصل. استدعت عيناك ما لاحظتِه في يد زميلتك وجرَّتك لفعلِ ما فعلتِ!).

لاحظت تساقط رأس الفتاة تدريجيًّا مع انسياب حديثي رغم أني كنت أنتقي كلماته بدقّة. كدت أن أمُدَّ يدي لأرفعها لكنني تراجعت، واستطردت: (ارفعي رأسك وواجهيني بنظرك، فما عاد بيننا خجلٌ أو حرج. أنا كما أخبرتك لست ملاكًا. لي غرائز وأطماعٌ أُحاول طوال الوقت التغلُّب عليها. أنا مثلُك تمامًا. أحمل في قلبي إخفاقات عمرٍ ولّى مني دون أن أُخيَّر في أغلب أموري. منذ كنت صبيًّا أقرأ الروايات البوليسية ووددت أن أكون طبيبًا شرعيًّا!). رفعت الفتاة رأسها مع هذه الجملة الأخيرة فأردفت لها: (مشاعر الإنسان وغرائزه قد تقوده إلى الشَّبَقِ والسعادة، وقد تقوده إلى الهلاك، فليس بعد كلِّ شَبَقٍ أو سعادةٍ رضًا إلا إن كان بلوغهما شرعيًّا. لذا فعلى المرء أن يتفقّد تلك الغرائز جيدًا قبل الانقياد وراءها. قد لا يكون مُسيطرًا على مكامنها وبواعثها! لكنه وبحسب الأصل يُسيطر على مساره وسعيه نحوها، وهنا مربط الفرس يا فتاتي. فبالنسبة لي؛ ما لم يكن طريقي إلى تلك الغرائز مُباحًا من ربِّي؛ مُباركٌ ممَّن حولي؛ مُحقِّقٌ لرغباتي؛ أخوضه جهارًا نهارًا؛ ما تقدَّمت إليه خطوةً واحدة. أتفهمين مقصدي؟).

أومأت الفتاة بابتسامةٍ شاحبةٍ أدركت منها فهمها لحديثي، فأردفت: (وحين أجد من غرائزي حراكًا مُعيَّنًا، فعليَّ ألا أبقى في ذلك المكان الذي أيقظها وحرَّكها. عليَّ أن أبتعد عن تلك الظروف التي هيَّأتها أو استدعتها. عليَّ أن أُدرك أن استمراري سيُعرِّضني للخطر الشديد. عليَّ أن أركض دون تفكيرٍ قبل أن تتمكَّن مني وتُسيطر عليَّ! أن أنفضها تمامًا عن رأسي. الأمر لا خيار لنا فيه. أنا جئت إليك بمناسبة سلوكٍ مُحدِّد صدر عنك، وذلك ما أُحدِّثك بشأنه، لكن بالتأكيد لديك سلوكيَّات كثيرة أنا لا أعلمها، وربَّما لا أحد يعلمها. ربَّما أنك لن تُصارحي بها أحدًا، فكيف ستتعاملين معها؟) نظرت لي باستفهام من تنتظر الإجابة فأجبتها: (عليك بقياس ما أقوله لك في كل تلك الأمور. عليك الابتعاد عن مُسبِّبات تلك السقطات التي قد تدفعين ثمنها غاليًا. التي قد لا تعودين بعدها كما كُنتِ قبلها. تذكَّري دائمًا تلك الكلمات وردّديها... طريقي إليها مُباحٌ من ربِّي؛ مُباركٌ ممَّن حولي؛ مُحقِّقٌ لرغباتي؛ أخوضه جهارًا نهارًا. وبإمكانك بمزيدٍ من النُّضج أن تُضيفي لها سمات أُخرى، فَقَوْلي فيها اجتهادٌ وليس فصل).

تنهّدت وأنا أقطع تلك الورقة التي اكتظَّت بالخطوط المُتعارضة المتشابكة. ابتسمت الفتاة وقد أشفقت على الورقة وقالت: (لم قطعتها؟ أرى فيها حديثًا سطرته بمشاعرك يا أستاذ. كُنت سأحتفظ بها). فابتسمت لها قائلًا: (قطعتها بعد أن وثِقتُ من استيعابك للدرس يا ميساء). ونظرت لها طويلًا قبل أن أُردف: (على الأغلب ستكون هذه هي زيارتنا الرسمية الأخيرة، لكنني سأُعطيك رقم هاتف مكتبي. لا تتردَّدي في الاتصال بي لطلب المشورة أو النُّصح).

قرأت في نظرة الفتاة صدمة شديدة، وكأنها ظنَّت أن لقاءاتنا هذه ستكون بلا نهاية، لكنني كُنت أتفهَّم تلك النظرة والدمعة المحجوزة وراءها. أنا أعلم خُصوصية هذه السن وتعقيداتها.

قررت قطع ذلك الشجن الذي كاد يُسيطر على جلستنا فقُلت لها: (سأطلُبُ والديك من خلال

مكتبنا). فعلت ابتسامة كبيرة وجهها. خشيت أن أفكارها قد شطّت، فاستدركتُ - توضيحًا لغرض الزيارة الذي ظننته التبس عليها - قائلًا: (سأدعوهما بحُجَّة ذلك الاستطلاع الذي يُخطِّطُ مكتبنا لإجرائه على بعض القضايا المُجتمعية. سأكون أنا من يستقبلهما، وسأنحرف معهما في حديثي إلى أُسلوبهما في التعامل مع الأبناء، وأعدُك بأن تجدي منهما اختلافًا وشيكًا في تعاملهما معك ومع إخوتك). هزَّت الفتاة رأسها بخيبة أملٍ رَصَدْتُها على وجهها، ثم طلبت مني رقم الهاتف كما وعدتُها، فكتبته وقدَّمته لها وطلبت منها العودة لفصلها دون أن أُواجه عينيها، فقامت من جلستها وانصرفت بخُطى مُتردِّدة حزينة.

كنت واثقًا بأن الفتاة لم تتعافَ بعدُ وبحاجة للمزيد من الجلسات. لديها الكثير لتقوله وبالكاد وجدت المُستمع. سأُرتّب مع المشرفة لتتولّى متابعتها والتحدُّث الدوري المنتظم معها.

حضرت المُشرفة فور أن شاهدت الفتاة تُغادر. جَلَسَتْ أمامي، فنفضت مشاعري المختلجة وبادرتها ضاحكًا: (أين العصير؟ لقد لفحتني الشمس!).

- (ضاحكة) أنت فتحته لي في الزيارة الماضية.
- أَوَكَانت عبوة وحيدة بمكتبك؟ خِلت أنه صُندوق!
- لقد نفد وكانت تلك هي الأخيرة.
- سأُحضر لك واحدًا في الزيارة التالية.

نظرت لي باستنكار فضَحِكْتُ وقلت لها: (حسنًا حسنًا... لن أحضر مرَّة أُخرى) وفتحت ملفي لأُردف لها: (لكن بشرط... عليك الانتباه لسلوكيات الطلبة والطالبات بصورةٍ أكثر احترافيةً. لديك على سبيل المثال طالب يُدعى سامح لديه فرط عصبية زائدة وبحاجة للمراقبة والإرشاد. وطالب آخر يُدعى أدهم يُعاني الانطواء والانزواء. ربما كان يميل للوحدة، أو عساه يُعاني من متلازمة أسبرجر التي تعوق تواصله الاجتماعي مع الآخرين. من الوارد أيضًا أن يكون ضحية تنمُّرٍ اضطرَّه للانعزال عن زملائه. ميساء بدورها تتعرَّض للتنمّر من بعض زملائها وقد تأثَّرت نفسيتها كثيرًا. عليك ألا تستهيني بتلك المظاهر التي من السهل معالجتها في بداياتها. سواءً كانت أعراضًا لأمراضٍ نفسية أو عُضوية).

لاحظت اهتمامها بتدوين ما أذكره لها، فاستطردت بحماس وتركيزٍ قائلًا: (لا تترددي في طلب أولياء الأمور بإصرارٍ إذا ما استدعت مصلحة أبنائهم ذلك، وأن تستعيني بمكتبنا إن وجدتِ تثاقلًا منهم في الحضور، فلدينا القدرة على إجبارهم على الاستجابة لكِ. ومن جانبي؛ سأوصي بتزويدك بزميلٍ لدعمك ومشاركتك دورك الحيوي)، فقاطعتني برجاء: (ليتك تفعل ذلك في أسرع وقت، فأنا أعمل وحدي رغم حداثة تخرُّجي وقلَّة خبرتي).

فتحت الملف وتصفّحته وأنا أقول لها: (ميساء ما زالت بحاجة للمتابعة. عليك أن تطلبيها من وقتٍ لآخر لتطمئنِّي عليها وتُقدِّمي لها الدعم النفسي اللازم، وتُنمِّي ثقتها بنفسها. الفتاة شخصيتها

ضعيفة ولا تُناسب عمرها، وبحاجة لمن يرعاها ويمنحها الخبرات اللازمة. بحاجة لمن يسمع منها ما يموج في نفسها، فيُجيب تساؤلاتها وينصحها. عليك ألا تُردِّدي لها تلك الواقعة مرة أخرى، لكن ذلك لا يمنع من متابعة تصرُّفاتها وعلاقاتها بزملائها من الجنسين).

لم أتمكَّن من كبت غِلِّي، فنظرت لها بلوم قائلًا: (صدمتي كانت شديدة بسبب استهانتك ببقاء الفتاة في الفصل أثناء الراحة رغم ما وقع منها! فذلك يُسوِّل لنفسها تكرار فِعلتها. لا بأس من أن تُراجعي كُتب الكلية وأبحاثها من آنٍ لآخر، فالدراسة ليست سبيلًا للحصول على شهادة التخرُّج ومن ثم التعيين، ولكنها لمنحنا العلم والخبرة والدراية اللازمين للتعامل وتنفيذ ما يُحقِّق صالح المجتمع وأفراده).

نهضت مُبتسمًا وأنا أقول لها: (وجدت أنني سأُريحُك من زياراتي، فوددت ترك بصمة لا تنسيها بحديثي هذا)، ثم زدتُ من ودِّ ابتسامتي وأردفت: (ما كُنت لأقول ذلك لولا أنني أكبر منك سنًّا، كما أنني حاصل على درجة الماجستير، فصرت أهلًا لنُصحك. أنت خريجة حديثة وستقبلين نُصحي بصدرٍ رحب).

- بالتأكيد يا رائف. أتسمح لي أن أُناديك باسمك؟

- بالتأكيد. نحن زميلان. أنا بطبيعتي لا أُحبّ تلك الألقاب.

- حسنًا. تشرّفت بمعرفتك جدًّا. سأعمل بنصائحك، وسأُبلغُك بالنتائج قريبًا.

كتبت رقم هاتفي على ورقة قدَّمتها لها وأنا أشكرها على حسن استقبالها وعصيرها الذي لم أذقه بعد، لأنصرف وكلانا يضحك ملء فمه.

عَبَرْت الفناء هذه المرة من مُنتصفه وأنا أرفع يدي بإشارة وداعٍ، وقد خمّنت أن تكون ميساء تُراقبني من نافذة فصلها القريب.

ركبت السيارة وانطلقت وما زالت نظرة الفتاة الحالمة في ختام حديثنا تُطاردني. ربما لأن عينيها تُشبهان عيني أُمي في صورها القديمة، أو لأن قلبها غضٌّ كقلب شقيقتي، وربّما لأن الاقتراب الحسِّي والبوح بالمشاعر يخلق ارتباطًا بين الناس قد لا يبلغونه رغم امتداد علاقاتهم لسنوات.

من المُحتمل أيضًا أنها ذكَّرتني بهمْس حين كنت أُتابعها من نافذة حجرتي وهي عائدة من مدرستها بزيٍّ مُماثل لذلك الذي ترتديه ميساء، وبقوام لم يختلف كثيرًا عن قوامها. تحمل حقيبةً تتدلّى على ظهرها، وأسرارًا جاشت بصدرها لا تقلُّ عن تلك التي امتلأ بها صدر ميساء! كانت همس تُصارحني بكُلِّ ما يُزعجها أو يؤرِّقها، وكانت تُنصت لحديثي وتسعد بنُصحي رغم يقيني من أنها تفوقني حكمةً ورزانةً، وكانت كلّما انتهت جلساتنا تشكرني بامتنان وتُعرب عن ارتياحها الشديد بعد أن تخلَّصت من كل تلك الشحنات التي أثقلت صدرها، فمن الرائع أن تجد من يشعر بك ويمنحك الأمان لفتح قلبك، ومن المؤلم جدًّا أن تفقده بعد أن وجدته وتعلّقت به، لذلك عزمت على

ترك رقم هاتفي لكل الحالات التي تعاملت معها.

لا حرج في أن أُصارح نفسي بأنني أنا أيضًا تعلَّقت بهم جدًّا. وجدت في متاهات مشاعرهم بعض مشاعري التي افتقدتها منذ فترة. أحيوا في قلبي أُنسًا ووِدًّا واهتمامًا قليلًا ما كنت ألمحهم.

تناولت وجبةً خفيفةً في طريقي، وحين عُدت للبيت ارتميت على الأريكة وقد تشابكت مشاعري وأفكاري. افتقدت ساق أُمِّي التي كُنت لأخلد في النوم لو كانت هي مخدعي ووسادتي، ولصوتها الذي كان يرفع عنِّي أثقال همومي، فقمت وأعددت القهوة وأنا أطلبها لأطمئن عليها، أخبرتني بأنها تُفكّر في المبيت مع خالتي يومًا أو يومين إضافيّين، فحمَّستها لذلك، فهي بائسة تقضي اليوم بطوله وحيدةً بطقوسٍ ثابتة لا تتغيّر. أغلقت المُكالمة لأتّصل بأكرم وأُخبره بزيارة ميساء التي شعرت بأنها مُرْضِية، فشاركني الرأي وتمنّى لي التوفيق في باقي الملفات.

أنهيت قهوتي ثم اتصلت بسماح. لُمتُها فور أن أجابتني على عدم اتصالها منذ أمس. ارتاح قلبي كثيرًا حين لمست هدوء صوتها وخلوَّه من نبرة الشجن التي اعتدتها مؤخَّرا. علمت منها أن أحمد يُجاهد نفسه ليوقف تلك العادة السيئة، فأصبح يتعمَّد ترك هاتفه بعيدًا ليجلس معها ويُبادلها الحوار المرح. أثلجت أخبارها صدري، وأوصيتها بأن تبذل هي الأخرى ما عليها من جهد لاستيعاب زوجها، وعدم ترك أي فرصة له ليرتدَّ عن صوابه مرة أُخرى.

نظرت في ساعة الهاتف وأنا أُنهي المُكالمة لأجد الوقت يُداهمني، فبدلت ملابسي بسرعة وغادرت قاصدًا الزيارة التالية.

دخلت مكتب المهندس مدحت لأُشاهد السكرتيرة الحسناء واقفةً وظهرُها لي. كان قوامها وثوبها أقرب لتلك الصورة التي رسمتُها ذلك اليوم للسيدة ريهام! تطابقت معها في كل شيءٍ عدا تلك السيجارة ذات المبسم.

استدارت فجأة لتجدني واقفًا أتأمَّلها في صمت، فحيَّتني بابتسامتها الجذابة ونظرةٍ التمست خُبثها وقالت إن المُهندس في انتظاري، فدخلت المكتب لأجده في ذات مكان جلوسنا السابق، والنادل يظهر من ذات الزاوية ليُطاردني بعصيره الطازج وكأن الأمر مُرتَّب! فشكرته هذه المرة دون أن آخذ العصير، وصارحت المهندس أنني على عجلةٍ من أمري بسبب يومي الطويل المُرهق، ولن أستغرق من وقته سوى دقائق بسيطة. دعاني للجلوس وهو ينظر لي وكلُّه آذانٌ صاغية. أعطيته نبذة عن زيارتي الأخيرة التي قابلت فيها الطفل، وبردود فعل الطفل وارتباكه، وباختياره الذي صارحني به بعد أن اطمأن لي. كان الغضب يتصاعد على وجه المهندس مع تقدُّم حديثي حتى بلغت آخره، فقال بصوتٍ غليظ: (أنتم سيد رائف لا تدركون حساسيات التعامل مع الأطفال. ما كان عليك مواجهته بهذه الطريقة المُربكة. أتعلم آثار ذلك؟).

- سيدي. نحن نعمل بناءً على تأهيلٍ وخبرةٍ منتقاة. (وأردفت بنظرة تحدٍّ) نحن بالمناسبة لم نذكر للطفل أن والدته قد خانت والده.

- ماذا تقول؟ بالطبع لا تستطيعون ذلك.
- ولكنك استطعت ذلك سيد مدحت!
- أنا؟ أنا... أنا قلت له أن...
- أن والدته خانتك. هذا ما قاله لي بالحرف الواحد. أهذه هي الطريقة المناسبة التي تنصحني باستعمالها؟

أشعل سيجارًا غليظًا بعصبية، لينفث دفعات متتالية من دخانه انتشرت في المكان بسرعة وكثافة ما تُصدره مدخنة قطار فحمٍ بُخاريٍّ قديمٍ يحتضر مُحرّكه، فبادرته قائلًا: (شريف يقول إنه يذهب مع والدته وجدَّته في المواعيد المُحدَّدة للرؤية، لكنك لا تحضر، وهذا يُخالف ما ورد بصحيفة دعواك. ما تعليقك؟).
- وهل دورك هو تتبُّع دفاعي بالصحيفة أم دراسة حالة الطفل الاجتماعية؟
- أعلم دوري جيدًا وأقوم به. وما زلت أنتظر ردَّك.
- بالطبع كان سيقول لك ذلك. لقد تعلَّم الكذب من والدته.
- أشك في ذلك. لقد هيَّأْتُهُ جيدًا كيلا أسمع منه إلا الصدق.
- هيَّأْته؟ أم أنّ والدته هي التي هَيَّأَتْك؟

لست متأكِّدا من نوايا المهندس أو تلميحه المقصود بتلك العبارة الأخيرة، لكنها في جميع الأحوال لم تزُق لي. كانت كفيلة بإنهاء الحديث، فطويت ملفي وقمت وأنا أُبادله نظراته النارية التي رمقني بها طوال الزيارة، وقلت له وأنا أُغادر أن اختلافًا لا مُبرِّر له رصدته عليه على مدار الزيارتين، ولا أعلم إن كنتُ سأُغامر بزيارة ثالثة له أم إنني سأكتفي بما سمعت.

مسح المُهندس وجهه كمن استيقظ فجأةً من غفوته وهو يعتذر لي عن حدَّته، طالبًا مني ألّا أُسيء فهمه، لكن أذنيَّ كانتا قد كرهتا سماع صوته. لقد حذّرني أكرم كثيرًا من أن أَبلغ هذه الحالة من الغضب، لكنني بالفعل وصلتُ لها. تابعت طريقي خارجًا من المكتب دون حتى أن أنظر له أو أردَّ وداع السكرتيرة الحسناء.

تحرَّكت بسيارتي ودمي يفور من الغيظ. أهذا هو التقرير الذي حسبت في البداية أنني سأسطره بكل يُسر؟! كم كنت ساذجًا. كنت أخشي أن تبتزَّني والدة الطفل فتدَّعي عليَّ ما لم أفعله، فوجدت والده هو من يُبادر بذلك. ما هذا المُستنقع الذي طُلِبَ مني تطهيره من دنسٍ تشرَّبَتْه جُدرانه حتى تشبَّعت؟!

اتصلت بأكرم وأُخبرته بعصبية بما تم، وسألته إن كان من حقِّي سطر مُذكِّرة ضد ذلك المُختلِّ، فطلب مني تجاوُز الأمر واعتياده. أحطته بأنني أرغب في كتابة تقريري الختامي بشأن هذه الحالة الليلة، فحذَّرني من أن أفعل ذلك أثناء غضبتي. نصحني بعدم التفكير في أي شيء حتى الغد، وأن ألوذ بقسطٍ من الاسترخاء اللازم ليستردَّ عقلي حياده، فالملف ليس من الملفات العاجلة.

اقتنعت بما قاله. كدت أطلب منه في ختام المُكالمة أن نتقابل في المقهى كالماضي، لكنني تراجعت في آخر لحظة وأنهيت الاتصال.

جلست أُقلِّب في قنوات التلفاز كعادتي. تابعت لقطاتٍ ومشاهد من بعض الأفلام القديمة كان لها أثرٌ جيِّد على نفسيّتي، ثم توجّهت لغرفتي وبدأت أسطر التقرير النهائي الخاص بميساء، وأشرت فيه لاحتياجها لمتابعةٍ متَّصلةٍ من خلال مشرفة المدرسة، ولزياراتٍ شهرية يُجريها أحد المُختصِّين من مكتبنا. استدركت ورشَّحت أن يكون من الإناث. كنت راضيًا عن هذه النتيجة والتوصيات التي حدَّت من قلقي على الفتاة.

هدوء البيت بغياب أُمِّي أشعرني بوخمٍ شديد. اتصلت بها فأبلغتني بأنها كانت تتهيَّأ للنوم، فتمنيتُ لها أحلامًا سعيدة، ثم أنهيت الاتصال.

كان مما يُحيِّرُني أن كل من زرتهم كانوا من الأثرياء ميسوري الحال! لم أجد بينهم ذلك الفقير البائس الذي توقَّعت استدعائي لوأد مُعاناته! المُعدَم الذي كنت أظنه الأكثر عرضة للاضطراب والخلل الاجتماعي! وجدتها ملحوظة مهمة تستحق مُراجعة أكرم بشأنها، فلا أظن أن تلك المشكلات الاجتماعية حكرًا على الأثرياء!

استلقيتُ على فراشي، لتبدأ وجوه أصحاب تلك الحالات في التناوب على مُخيِّلتي! ميساء وأمجد وشريف... مقتطفات من أحاديثهم كانت تتداخل في عقلي وتتقاطع مع بعضها بلا أي ترتيب أو نظام. خلت نفسي أركض تجاه أحدهم لإنقاذه، فما أكاد أصل له حتى تعلو صرخات استغاثة آخر، فأستدير لأقصده.

ظلّت أفكاري تتقاذفني يُمنةً ويُسرةً حتى غفوت.

كنت حريصًا على أن أستيقظ في موعدٍ مُبكِّر بعد غياب أمس، لاسيما وأن اليوم هو نهاية الأسبوع. ارتديت ملابسي وتوجّهت للعمل، حيث عرجت فور دخولي على مكتب أكرم وشكرته على نصائح أمس. تردُّدت لوهلة في أن أُقدّم له تقرير ميساء الذي أحضرته معي لهذا الغرض، فالتمست منه تأجيله لمطلع الأسبوع القادم لمزيد من المراجعة والتأمُّل، فأجاب طلبي مُوضِّحا أن أهم ما في الأمر هو أن تكون الفتاة قد تلقَّت المُساعدة اللازمة، فأكدت له ذلك.

ناقشته أيضًا في ذلك الأمر الذي لاحظته. جميع الحالات التي أبحثها كانت من الطبقة الراقية! فأخبرني بأن الأمر ليس كما أظن، إذ مطلوب من المكتب أبحاث لحالات كثيرة تنتمي إلى طبقاتٍ أدنى، لكنه لم يشأ أن يُحيلها عليَّ؛ لأن التواصل مع أصحابها ستعترضه بعض المعوِّقات؛ لعدم قناعتهم بدور المكتب وقيمته، فضلًا عما سيستغرقه بحثها من وقتٍ مُضاعف، وأردف أنه بعد تفعيل دور مكاتبنا فقد أصبحنا نستقبل العديد من الطلبات، سواء من الأفراد أو المدارس أو المحاكم، بل والجمعيات الخيرية أيضًا؛ لبحث ودراسة أوضاع اجتماعية شديدة البؤس والتعقيد، ووعدني بأن أنخرط في بعضها قريبًا، فأعربت له عن شوقي الشديد لذلك. شكرته على الإيضاح واستأذنته.

مررت بكل زملائي وألقيت عليهم التحية بابتسامة انتصارٍ أعلم مناسبتها، فقد أشعرني إنهاء الملف الأول بأنني بالفعل أعمل في هذا المكتب، وما عُدت عالةً على المجتمع.

ابتسمت حين شاهدت عماد أثناء مروري. كان يجلس بشرودٍ، فتذكَّرت حالي. أكاد أُميِّز كل ما يُدور في رأسه الآن. احتقارٌ للجميع، بمن فيهم العبد لله! عدم اكتراث بتلك الأوراق البالية التي يسطرونها بِهِمَّةِ مَنْ يُخطِّط للإيقاع باللص الوجيه آرسين لوبين الذي حار في ضبطه الإنتربول الدولي! أعلم أنه يرى أن أنفع من في المكان هو ذلك النادل الذي يُقدِّم المشروبات الساخنة ذات الطعم الجيّد. لا أُقلُّل من شأنه طبعًا فَلَهُ كل احترامي، وبغيره ما تمكَّنت من الاستمتاع بعملي على هذا النحو. لكن هذا ما جال بخاطري!

ضحكت كثيرًا قبل أن أدخل غرفة مكتبي.

ثمة ملف جديد وجدته على الطاولة! وزَّعه عليَّ أكرم أمس دون أن يُحِطْني علمًا كالعادة. تعلّق بمُشكلة المُشرَّدين وأطفال الشوارع. لا بأس. يا أهلًا بالمعارك. لقد انتهيت من ملف أمس وكدت أُنهي اثنين آخرين. سأعمل جاهدًا على حل كل تلك المشكلات، فأنا أوقن بأن إرثًا ثقيلًا لحروبٍ ونزاعاتٍ واستعمارٍ وفسادٍ تحمَّلته مُجتمعاتنا حتى أصبحت بحاجة لجهودنا جميعًا. إن لم يقم كلٌّ منا بدوره لما تمكَّنَّا من الخلاص من كل ذلك.

قضيت اليوم في ترتيب أوراقي وخُططي العاجلة. الاستعداد لزيارة السيدة ريهام، ثم أمجد.

الموضوعان اللّذان كدت أَنهيهما لأُقدِّم المزيد من الجواهر لهذا المكتب الفقير.

اتصلت بالسيدة ريهام ففاجأتني بطلب إرجاء الزيارة، إذ ستنشغل ببطولة رياضية سيُشارك فيها ابنُها خلال يومي العُطلة على التوالي. يا لسوء الحظ!

بعد مزيدٍ من التفكير، رجَّحت أن زيارة أمجد أيضًا لن تكون مُثمرةً اليوم، فالتعافي النفسي يحتاج لوقت، والتأهيل الاجتماعي يكون تاليًا له. عليَّ السيطرة على حماسي الذي يقودني للاستعجال في كل شيء دون وعي! عليَّ عدم الانقياد له لأضمن إتقان عملي وأدائه على أكمل وجه. قررت تمضية بضعة أيام، لتكون زيارته التالية مع بداية الأسبوع القادم.

يبدو أنني سأضطر لفحص الملف الثالث هذه الليلة.

انصرفت حين حل موعد الانصراف. لم أجد شهية لوجبات الطريق، فأعددت شطيرتي جُبن في البيت واطمأننت على أُمِّي وخالتي هاتفيًّا، ثم استسلمت لقيلولة.

استيقظت لأنظر في الساعة. كان وقت الغروب. أعددت كوبًا من القهوة حملته وجلست على مكتبي، والتقطت ملف الفتى حسن من بين باقي الملفات.

كانت المعلومات بالملف مختصرة جدًا. تلميذ في الصف الثاني الإعدادي انقطع عن المدرسة دون عذر مَرَضِيٍّ. وضعت علامةً بعد هذه اللفظة الأخيرة وأضفت فوقها لفظة (عُضويٍّ). فهو في الغالب لديه عذر مرضيٌّ من النوع النفسي. أكملت القراءة. ظهرت عليه مظاهر الانطوائية والعصيان والحِدَّة في التعامل مع زملائه ومُدرِّسِيه.

رفعت عينيَّ عن الملف وقد ميَّزت في تلك الأوصاف شكوى العديد من أقاربي أيضًا. يا لحُسن المُصادفات «السيِّئة»!

تلقفت بعض مراجعي العلمية وتصفَّحت بعض صفحاتها قبل أن أتَّصل بوالد الفتى؛ لأستأذنه في زيارته، فصرَّح لي بتردُّدٍ واقتضاب. لا بأس. بدَّلت ملابسي لأنطلق خارجًا من البيت لتنفيذ هذه الزيارة.

تسكن الأسرة في فيلا منفصلة تحفُّها حديقة جميلة في أحد الأحياء الراقية الحديثة. وكباقي حالاتي! مظاهر الثراء كانت واضحة في أثاث البيت وتصميماته.

رحَّب بي والد الفتى وهو يُصارحني بأن اتصالي به اليوم فاجأه، فهو لا يظن الأمر بتلك الخطورة، وأردف وهو يقودني لغرفة الاستقبال أنه اضطرَّ لمُجاراة المدرسة في رفع الأمر إلى مكتبنا؛ لكونه الفرض الوحيد الذي سيُثنيها عن رفت ابنه.

جلست حيث دعاني للجلوس وأنا أسأله عن حال الفتى، فأجابني بأنه بصحَّة جيدة، لكنه رفض الذهاب لمدرسته منذ بداية العام الدراسي دون سببٍ مفهوم، ثم تطوّرت الأُمور ليرفض حضور تدريباته الرياضية في النادي، فاستجابوا لذلك أيضًا وقد ظنوا أنها حالة عارضة بسبب اختلافه مع بعض أصدقائه. إلا أنه بدأ يمتنع مؤخرًا عن مُجالسة أفراد الأسرة أو الحديث معهم! وأردف أنه

فيما عدا ذلك فإنه يعيش حياته بصورة طبيعية جدًّا. تعجَّبت كثيرًا من تعبيره الأخير؛ فأيُّ صورةٍ طبيعية يتحدث عنها؟!

سألته وأنا أُطالع أوراق ملفي عن تلك العدوانية والحِدَّة في التعامل الواردين بها، فأوضح أنه كلامٌ مُبالغ فيه من المدرسة، فهو لم ينتظم بها منذ بداية العام لتحكم عليه بذلك!

طلبت منه مُقابلة الفتى فالتمس مني اتِّباعه. صعدنا الدرج الداخلي للمنزل وهو يُردِّد بضيق أن ابنه لا يخرج من غرفته إلا للذهاب لدورة المياه أو لتناول وجباته في المطبخ! لم تُساورني تلك الرهبة التي كنت أشعرها في زياراتي الأولى. لقد اعتدت فرض نفسي على أصحاب الملفات.

وقفنا أمام باب الغرفة المفتوح لنجد الفتى مندمجًا في إحدى الألعاب الإلكترونية على شاشةٍ مُعلَّقة على أحد حوائط حجرته فاقت في حجمها الشاشة الرئيسية بالمقهى التي اعتدت التردُّد عليه مع أكرم. قفز إلى ذهني بتلقائية ذلك النوع من الإدمان. إدمان الألعاب الإلكترونية. نعم هو إدمان. تمامًا كإدمان المخدرات أو أي سلوك أو غريزة نتجاوب معها دون انتباهٍ أو سيطرةٍ أو تحكُّم. الأمر خطير لدرجة أن منظمة الصحة العالمية أدرجته ضمن حالات الاضطراب النفسي. الجمعية الأمريكية للطب النفسي وصفته بأنه ظاهرة قد تقود إلى مشكلات اجتماعية وخيمة. بينما نتسابق نحن في تزويد أبنائنا بأحدث تلك الألعاب والوسائل وتضخيم تعلُّقهم واستمتاعهم بها ضخامة تلك الشاشة الذكية!

أحسب أن امتناع حسن عن الذهاب للمدرسة والنادي وعزوفه عن مجالسة الأسرة لم يكونا الأثر الأبرز لهذا الإدمان. يبدو أن ذلك فقط ما لاحظوه. هم لم يَرَوْا عُنفَه بَعد، والذي انتبهت له المدرسة وأشارت له بتقريرها!

بالطبع شكواهم جاءت متأخِّرة بعض الشيء، فهم لم يفطنوا للأمر كما يدَّعُون! يُجارون المدرسة على حد قول والده! من الوارد أنهم التمسوا في التهاء ابنهم بتلك الألعاب اكتفاءً وراحةً وهدوءً أسعدهم. وجدوا في انشغاله عنهم - ومن ثم تراجُع طلباته - مغانمَ لهم، وكأن وجوده بينهم كان مفروضًا عليهم وليس اختيارًا. فلم يحتملوه! يا لوخامة تلك المعاناة التي تنتظرهم إن لم يتكاتفوا لتخليصه مما تورَّط فيه!

همس والد حسن في أُذُني: (كما ترى. لا يردُّ على نداءاتي! لا يهتزُّ لصراخي)، فقلت له بتلقائية: (لقد أصبح مُدمنًا!). تقلّصت عضلات وجهه موحيةً باستنكارٍ لا أرى له داعيًا، فأردفت: (ألا تعلم سيدي؟ ابنك أصبح مُدمن ألعاب إلكترونية. الأمر لا مُزاح فيه، وعلاجُهُ سيطول. دعنا نهبط للأسفل لنُنَاقِش بعض الأُمور).

تبعته حتى عدنا لجلستنا الأولى، لأُخبره بأن شعور الإنسان بالسعادة أو الإنجاز هو أمرٌ يعتمد على مساراتٍ مُعينةٍ في مُخِّه تُحفِّز استجاباته العصبية. هذا هو أبسط تعريفات الإدمان. ربط السعادة بطقوسٍ أو نشاطٍ يتكرَّر من صاحبه، فتتملَّكه قناعةٌ داخلية بأن هذا النشاط أو الاستحقاق

هو المُسبِّب الرئيسي لسعادته. الاستمرار في تكراره لفترات طويلة يزيد من تلك القناعة ويُرسِّخها ليتحوَّل ذلك المُسبِّب الرئيسي إلى مُسبِّبٍ وحيد، فتتعلّق سعادة الشخص وترتبط به لتنحسر عن غيره! تسقط باقي أنشطته من اهتماماته باعتبارها، وببساطة شديدة، لن تُحقِّق له ما حققه هذا النشاط. من هذا المنطلق، سيُقابل أي محاولة لتعطيل أو تهميش سلوكه الذي يُسعده بعداءٍ وتحفُّز. سيعتبره غزوًا لرواسخه وقواعده المستقرة.. مُحاربةً لسعادته وراحته.

لم أجد منه أي تفاعل مع ما ذكرت، فأوجزت حديثي بأن الأمر سيحتاج لخطة زمنية يتفق فيها مع زوجته على بدء سحب حسن من تلك الدائرة التي أحكم غلقها على نفسه. استعاضة تلك السعادة وبثها في نفسه من خلال سلوكيات أو أنشطة أخرى. الاستعداد للآثار الانسحابية التي إن خرجت عن السيطرة فسيؤذي الفتى نفسه.

نظرات الوالد كانت تزداد دهشةً مع كل جملة.

فتحت ملفي مرة أُخرى وأنا أسأله إن كان قد عرض ابنه على الطبيب النفسي من قبل، فاتَّسعت عيناه من الدهشة وسألني باستنكارٍ شديدٍ: (أأَعرضه على طبيبٍ نفسيٍّ لأنه يلعب ألعاب الحاسوب؟!).

- بل لأنه أدمن ألعاب الحاسوب.

- (بعدم اقتناع) لا.. لم أعرضه على طبيب نفسي.

- وهل أنتم على استعداد لذلك؟

- (مُقاطعًا) بالطبع لا! أنا أحتمل حديثك فقط لأنك موظف حكومي، لكنني لن أخفيك سرًّا. أنا لا آبه لكل ما قلته ولا أقتنع به.

- (بنظرة باردة) حسنًا أمامكم أحد خيارين؛ إما أن تصطحبا ابنكما لزيارة الطبيب النفسي، وإما أن تتحمَّلا زيارتين أو ثلاثًا لهذا الموظف الحكومي؛ حتى يتعافى حسن مما تورَّط فيه. أنتظر إجابتك لتدوينها، وستُوقِّع عليها.

تمكَّنت بجدارة من كسب اهتمامه. رأسه بدأ يهتزُّ في حيرة قبل أن يقول: (ألهذا الحد؟)، فأجبته: (بلى)، ثم عاودت العبث بملفي دون هدف. استأذن وتركني، ففطنت إلى أنه سيُراجع زوجته فيما سمعه. تابعته بنظري حتى اختفى لأكتب في أوراقي: (فتى جميل يقع ضحية جهل أسرةٍ تناست أصول التربية وواجباتها. وتكنولوجيا صدَّرها لنا الغرب دون أن نُدرك مخاطرها).

لم يَطُل انتظاري، فقد عاد الوالد مُعلنًا أنه يُفضِّل بدء رحلة العلاج التي أزعمها بزياراتي؛ كيلا تتأثَّر نفسية ابنه من زيارة الطبيب. ردَّدت في نفسي أنها تأثَّرت بالفعل، وبما فيه الكفاية. أضاف أيضًا أنه على استعدادٍ لأيِّ نفقاتٍ ستتكلّفها تلك الزيارات، فأجبته بأن الدولة تتكفَّل بذلك. عليه فقط الانتباه لدوره هو وزوجته حيال حسن المسكين.

عُدت لأُقلِّب أوراق ملفي كعادتي التي كنت أتصفَّح من خلالها صفائح ذهني وأُرتِّب أفكاري، ثم

طلبت منه أن يُوفِّر بعض الألعاب التي كان حسن يُحبُّها في طفولته قبل تعلّقه بالألعاب الإلكترونية، ليضعها في أماكن بارزة بالمنزل، وأن يُحضر بعض الألعاب الذهنية كالشطرنج والدومينو وألعاب الورق، وأن يمارس اللعب بها مع الزوجة أو باقي الأبناء. نصحته أيضًا بأن يتعمَّدوا رفع أصواتهم تشجيعًا للُّعبة الحُلوة - أو المُميزة، أو احتفالًا بالمكسب أو رفضًا للهزيمة. أبدى لي صعوبة الأمر وعدم امتلاكهم الرفاهية أو الوقت الكافي لكل ذلك، فصرَّحت له بأن الأمر يستحق. هو شخصيًّا - وكل من سيشاركونه في اللعب - سيلحظون تحسنًا في حالاتهم المزاجية. سألني عن إشراك حسن، فقلت له: بثقة شديدة: (ليس بعد).

قمت لوداعه ثم انصرفت لأركب سيارتي وأُغادر ذلك الحي الهادئ، وقد اشتقت لصخب حيّنا وزحامه.

* * *

طلبتْ أُمِّي البقاء ببيت خالتي خلال العُطلة، وأن أمرَّ لأُحضرها في طريق عودتي من العمل يوم الأحد القادم! استجبت لها على مضضٍ وأنا أُبلغها بأن البيت بدونها موحش، فدعتني لتناول الغداء معهما يوم الجمعة.

لبَّيت الدعوة وتناولت معهما غداءً شهيًّا كنت أشتاق له في الأيام الماضية. وعند مُغادرتي طلبت منها ألا تغيب كثيرًا، فقد سادت الفوضى بالبيت، فلامتني وأوصتني بأن ألتزم بما تواترت على توجيهي به. تعليق ملابسي وترتيب فراشي. كما طلبت مني ألا أنسى صلواتي وأذكاري، وأكّدت لي أن الأمور ستكون على ما يرام، فوعدتها بذلك.

تلقَّيْت في طريق عودتي دعوةً من أكرم لمُقابلته بالمقهى، لكنني اعتذرت. ليس غضبًا أو رِدَّة فعلٍ لموقفِهِ السابق، ولكن لأنني بالفعل كنت مشغولًا من قمَّة رأسي حتى أخمص قدمي، حتى إنني تساءلت في ذهني وأنا أُنهي مكالمته: كيف كنت أذهب لهذه الكافيتريا أو ذاك المقهى بصورة يومية؟! كم كان عقلي فارغًا تافهًا! ما أن اندمجت في عملي حتى فقدت رفاهية الاسترخاء ومُتعة قضاء العطلة في تلك الجولات التي اعتدتها! تغيَّرت حياتي تمامًا. أصبحت مشحونًا بمشاعر متباينة تجاه الجميع! الأسرة والأقارب والمعارف، بل وأصحاب تلك الملفات التي أعمل عليها!

عدا ذلك الغداء؛ قضيت يومَي العُطلة في البحث في مراجعي وأبحاثي الدراسية.

طالعت أيضًا بعض المقالات والأبحاث العلمية المنشورة على شبكة الإنترنت. كان تركيزي بالطبع على تلك الحالات التي بدأت زيارتها، لكن وجدت بعض الأبحاث ذات صلة بباقي الموضوعات التي كُلِّفت بها، وبالمسابقة التي عزمت على المشاركة فيها والفوز بها كما حمَّسني أكرم، فطبعت بعضها وحفظت البعض الآخر على حاسوبي.

لقد اكتشفت أن تلك الألياف الضوئية الدقيقة تحمل رغم دقَّتها علمًا غزيرًا، كان بإمكاني طلبه وأنا أتصفَّح شبكة الإنترنت، لكنني كُنت أبحث عن أسماء ومواضيع أبعد ما يكون عن ذلك، فلم تبخل عليَّ بها تلك الكابلات، لكن أحسبها كانت تتهكَّم عليَّ وتُشفِق، كانت تُلبّي رغباتي مُجبرةً، خانعةً، واثقةً من أنني أعي ما أفعل!

ندمت على تلك السنوات التي تنصَّلت فيها من العمل، سنواتٌ آثرت قضاء نهارِ أيامها مُغيَّبا في فراشي فما استمتعت بنومٍ ولا اشتهيت طعامًا، وسهرت ليلها متسكِّعًا على النواصي أو جالسًا بتلك المقاهي لأقتل فراغًا أنا من أوجده وليس غيري، فأقتل معه عمرًا لا فضل لي في عيشه. عمرًا بالتأكيد سأُسأل يومًا فيمَ أفنيته؟ إن ممارستي لأي وظيفة أو مهنة - ولو قدّرت عدم مناسبتها - كان أكثرُ شرفًا لي من انتظار العمل الذي حسبته يُناسبني؛ فلكل عملٍ وجهٌ آخر خفيٌّ. وجهٌ لا يقل مُتعةً عن ذلك الذي كنت أتمناه.

صحيح أنني كنت أعشق الروايات البوليسية في طفولتي، ولطالما حلمتُ بأن أكون طبيبًا شرعيًّا لأغوص في أجواء تلك المهنة الغامضة ومُلابساتها. تعلُّقي بهذا الحلم كان سبب ازدرائي للمجال الذي تخصّصت فيه، فاستخففت بوظيفتي هذه، وتواريت منها قدر استطاعتي! رفضتُ تسلُّم أعمالها كلما برزت لي فرصة! كل ذلك رغم يقيني بأنني لن أصبح طبيبًا شرعيًّا!

وها أنا ذا أكتشف الوجه الآخر لوظيفتي بعد أن مارستها؛ لأجد حُلمي المُستحيل يتحقّق، فها أنا أسحب أوراق ضحيَّتي من الملف كما يسحب الطبيب جثمانها من ثلاجة الموتى. أضعها على مكتبي كما يضعها هو على طاولة التشريح. أغوص بأدواتي في أفكارها كما يغوص هو في جسدها. حتى ذلك المقذوف. الطلقة أو الشظايا التي يستخرجها منها. أجد لها مثيلًا في أفكار ضحيَّتي وبين رقائق نفسها ومشاعرها المضطربة، فأُحاول استخراجه.

بل أنا فُقْتُ ذلك الطبيب براعةً، إذ لديَّ الفُرصة لإنقاذ ضحاياي وتمكينهم من عيش حياةٍ أفضل! أمَّا هو فيعجز عن ذلك! يا إلهي. اغفر لي ما تقدَّم من ذنبي وما تأخَّر. أعنِّي على الحق وأرشدني إليه، فأنا لما أنزلت إليَّ من خيرٍ فقير.

قضيت ليلة الأحد ساهدًا أفحص ملف الطفل شريف. كنت واثقًا بأنه ليس وحده في هذا المأزق. فكثيرٌ هم من يدفعون أثمان استهتار ذويهم وهفواتهم.

كنت قديمًا أجدُ أُمِّي تبكي في زاوية غُرفتها، فأهرع إليها بقلق لمواساتها وسؤالها عن السبب. كانت لا تُصارحني. لم تكن لتُصارح أي شخص بما يختلج بقلبها، لكنني كُنت أعلم أن خلافًا دبَّ بينها وبين أبي، رصدت أجواءه قبل أن أرصد آثاره في دموعها.

البيوت لا تخلو من المُنغِّصات والمشاكل، لكن حرص قُطبيها على التجاوز عن كل ما قد يُحدث شِقاقًا أو فراقًا كان بالغًا. تلك الغاية التي ردَّدَتها أُمَّهاتنا لتمرير الخلافات: (نحتمل لأجل الأطفال) كانت غاية عظيمة، فما رأيت طفلًا سويًّا نشأ في كنف والدين منفصلين إلا القليل!

* * *

بداية أسبوع أحسبه سيكون مُشرقًا. تناولت إفطاري وسارعت إلى العمل بشغف طفلٍ يبدأ يومه الدراسي الأول الذي أعادته إلى ذاكرتي زيارات الجميلة ميساء. تبادلت التحية مع الزملاء لأنزوي بعدها في مكتبي أُراجع أوراقي وملفاتي.

أنهيت مراجعة تقرير ميساء حتى بلغ رضاي عنه مداه، فتوجَّهت لأكرم وقدَّمته له، ليُهنِّئني هذا الأخير على التغيُّرات التي أصبحت محور حديثه هو وجميع الزملاء بالمكتب. حتى إن المُدير أصبح مُتشوِّقًا لرؤية تقاريري بشغفٍ شديد. عانقته وأنا أشكره على دعمه الدائم لي، فبدونه ما كنت أبلغ ذلك. اعتذرت له أيضًا عن عدم تلبية دعوته للقاء المقهى يوم الجمعة، فابتسم مُعربًا عن أن الأمر لا يقتضي الاعتذار، مُضيفًا أنه ما دعاني لذلك إلا بعد أن اطمأنَّ لزوال الظرف الذي دعاه لوقف تلك المُقابلات، وأضاف أنه كان يعلم انشغالي الشديد وضيق وقتي، لكنه آثر المُحاولة.

غادرته دون أن أُبالي بما ذكره عن إعجاب الموظفين بي أو رضا المُدير عنِّي؛ فقد كان الأهم من كل ذلك هو شعوري الداخلي بالنجاح. انتصاري بعد هزيمةٍ طالما طاردتني في الماضي، خلاصي من ذلك الخُذلان القابع على صدري، فاقت سعادتي بذلك كل الحدود، نشوتي بلغت ذُروتها لدرجةٍ كانت تُقلقني.

عُدت لغُرفتي لأجد عدة مُكالمات فائتة على هاتفي. طالعتها لأجد أنها وردت من شقيقتي. ما الذي أعادها لعادتها القديمة فتتصل بي عدة مرات في العمل؟!

رجَّح عقلي أن زوجها قد ارتدَّ بدوره لعادته. هذا ما كُنت أتحسَّب له! اتصلت بها فرَصَدْتُ في صوتها شجنًا كنت قد نسيته. سألتها بفضول عمَّا أصابهم، فأخبرتني - بعد مُماطلةٍ تغيَّت منها تهيئتي للخبر - بأن أُمِّي داهمتها أزمة صحية هذا الصباح، وقد اصطحبتها خالتي للمُستشفى. أغلقت الاتصال ثم اتصلت بهاتف خالتي فلم تُجِبْني. هاتف أُمِّي كان بدوره مُغلقًا. قفزت من جلستي بهلعٍ مُغادرًا العمل لأستقل سيارتي وأنا أتصل بسماح التي حدَّدت لي المستشفى.

قطعت الطريق بسرعة تجاوزت المسموح به.

عبرت باب المُستشفى لتُصِيبني رائحتها النفَّاذة بالدوار. أصوات الألم ورنين تلك الشاشات والأجهزة الطبية وأجراسها التي تملأ المكان أحاطته بهيبة الموت ورهبته. سألت عن أُمِّي في الاستعلامات، فعلمت أنها في غرفة استقبال الحالات الطارئة.

نبْضُ قلبي كان يتزايد وقد بِتُّ على بُعد خطواتٍ من رؤيتها. مَرَضُ أبي سيطر على أفكاري في هذه اللحظات. صُورَتهُ لم تُفارق عيني حين كان مسجيًّا على سرير الطوارئ غائبًا عن الوعي وقد امتدَّت الأنابيب إلى ذراعه وحلقه. انضمَّ لها في تلك اللحظات صدى صوت أُمي وهي تُبلغني بأنها تشعر بطول انتظاره لها! حين أوصتني على شقيقتي التي لن يكون لها من بعدها غيري.

شعرت باختناقٍ طفيفٍ دَفَعَ بعض الدموع لتكسو مقلتَيَّ بطبقةٍ كثيفةٍ لامعةٍ، فتنهَّدت مرارًا لوقفها عند هذا الحد.

عبرت باب غرفة استقبال الطوارئ، وطُفت أبحث عنها بلهفة من يبحث عن جَرعَةَ ماءٍ بين كُثبان صحراء جرداء وقد بلغت شوكة الظمأ صدره. أن أراها في تلك الغُرفة كان آخر ما أتمناه، لكن خلوَّها منها في هذه اللحظة كاد يُفقدني عقلي. بدأت أزيح الستائر المُحيطة بالمرضى دون وعيٍ باحثًا عنها. تصدَّت لي إحدى المُمرِّضات بغضب فسألتها عنها، فاعتذرت لي بقلقٍ ثم رحلت. سألت أُخرى فلم تُجب. اجتمع الأطباء حولي يُحدِّثوني بأفواهٍ رأيتها تتحرَّك في صمت. صوتهم جاء صدىً خافتًا كذلك الذي يخرج من بئرٍ سحيقٍ لم أُميِّز مُفرداته وما كنت أرغب في ذلك.

صرخت بصوتٍ ملأ رأسي حتى كاد يُفجِّره: (أين أمي؟).

* * *

مرَّ أسبوعٌ على الوفاة وما زلت لا أُصدِّق. أكرم لم يتخلَّ عني طوال ذلك الأسبوع. لكن الصمت والشرود لازماني أثناءه. دموعي لم تجف. صرت أتأمل صُوَرَها هي وأبي على الحائط فيعتريني الخوف الشديد من حياتي القادمة.

كنت لا أزال بحاجةٍ شديدةٍ لهما، فأنا ما زلت ذلك الطفل الذي يرمح في الطريق بغير هُدى! أشاكس الجميع بغير حساب! آمنًا مُطمئنًّا من أن والده هو ذلك الرجل الخارق الذي يُلاحظه من علٍ، وسيهبط إليه فور احتياجه له، مستظلًا بدعاء فجرٍ صاحَبَ والدته فميَّز حلوله بصوتها لا بصوت مؤذِّن مسجد الحي.

صعبةٌ تلك الحياة التي تستقي رحيقها مِن أنفاسِ مَن لأعمارهم أجل. فتغفل. تأمن بقاءهم. فيُفجعك غدر رحيلهم. تهيم بعده متلمِّسا في شذا آثارهم وعبير ملابسهم بقايا حياةٍ سيُميِّزها أنفك ويتشبَّثُ بها قلبك باحثًا في ثناياها عن بعض السكينةِ والأُلفة والدفء، لكنها لن تبقَى على حالها لذلك الأمد الذي يُرضيك.

حضرت إلى العمل وقدماي تتخبَّطان. لقد زال ذلك الشغف الذي كان يدفعني له. شعرت بأنني ما عملت إلا لأُرضيهما! ليفتخرا بي! وقد رحلا.

التفَّ حولي الزملاء وهم يواسونني ويُحفِّزونني لأن أعود لحماسي! لأن أنخرط في العمل الذي سأتجاوز بفضله أحزاني. وكان أكرم يُتابعنا من بعيدٍ وهو الأكثرُ علمًا بقدر مُصيبتي. اعتذرت للزملاء، وانسحبت لغرفة مكتبي كمن ينسحبُ من حربٍ يعلم أنه سيخسرُها.

جلست وحيدًا شارد الفكر مُحَطَّمًا.

سرعان ما نقر الباب، فأَذِنتُ لمن ظننته أكرم بالدخول، لأجد عماد يعبر الباب ويردُّه خلفه. جلس أمامي بوقارٍ بالغ. همس لي بأنه يشعر بفاجعتي ويأسَى لها. شكرته على التعزية وقدَّرت له مُروره ثمّ عُدت لصمتي، فأردف لي بأنه لا يجد ما يواسيني به أبلغ ممَّا قلته له تلك المرَّة؛ أن الأمر مكتوبٌ لا خيار فيه ولا اعتراض، وأن علينا ألا ننظر للماضي، وألا ننشغل إلا بالمُستقبل. نظرت له بوعيٍ غائبٍ وذهنٍ أنهكه الحزن. فرّت دموعي لتجري على أنفي بدفءٍ كشف لي حدَّة برودة مشاعري، فأردف عماد داعيًا لأُمِّي بالرحمة ولي بطول العُمر، مُعربًا عن أنها ستكون في أوج فخرها حين تراني أُباشر عملي، وأقضي حاجات الناس بإخلاص.

قام عماد ليدور حول المكتب حتى وقف بجواري طالبًا مني أن أُبرهن على حبِّي لأُمِّي بالعمل، وأن أبذُل قدر هذا الحب في العمل، فهي الآن تُراقبني، وسيشتدُّ حزنها إن آنسَتْ أنها سببُ ألمي أو تخاذلي في قضاء مصالح وحاجات أولئك الذين ينتظرون بلهفةٍ مُساعدتي. ثم ربت على كتفي وغادر.

بقيت جالسًا أتفكَّرُ في كلمات عماد لي، والتي كانت قبل أيام كلماتي له! كنتُ حين ردَّدْتُها له مؤمنًا بها واثقًا من مفعولها. كنت أشعر وقتها بأن أبي ينظر لي من عالمه الغيبيِّ وهو فخورٌ بي وبأعمالي. كان ذلك يُحمِّسني ويدفعني للاجتهاد في العمل. لإتقانه. لكن... أتكفي تلك الكلمات لأتجاوز محنة فقد أُمِّي؟! أَستُعيد لي طاقةً وحماسًا كنت قلقًا حين بلغتهما قبل أيام؟!

يبدو أننا لا نقوى على فعل ما ننصح الآخرين بفعله! كدت أتِّهمُ عماد بالتهكُّم عليَّ لولا أنها نفس كلماتي! لولا يقيني من دماثة خُلُقه، لكنني اكتشفت أن تلك الكلمات التي نواسي بها غيرنا ليست بذلك الأثر الذي نظنه. لا تمنحهم ذلك الصبر الذي نُحاول بثَّه في نفوسهم. هي لا تغدو أن تكون سخريةً مقيتةً لا تُغني مُتلقِّيها أو تُسمنه من جوع.

دخل أكرم المكتب دون استئذان. اقترب مني. انحنى ثم ضمَّني برفق وربت على ظهري، مؤكِّدا لي أنني لن أخرج مما أنا فيه إلا بالعمل. لن أتجاوز حُزني إلا بزيارات ذلك الطفل الذي حكيت له عنه، أو ذلك الشاب المودَع بالمصحة في انتظار التوجيه والنصح. الوقت يمرُّ ومدَّة الاختبار شارفت على النفاد دون أن أودِع سوى تقرير واحد. لوَّح لي بأن فقدي للوظيفة هو ما سيؤلم أُمِّي في قبرها؛ لأن كلينا يعلم مدى سعادتها بالتحاقي بها، صرَّح لي بأن أُغادر العمل وقتما أشاء، وأن أحضر وقتما أشاء. كل ما عليَّ هو إنجاز الملفات التي بحوزتي خلال الأجل الذي أعرفه جيدًا.

انصرف أكرم وقد كشف بكلماته عن بقايا ذلك الحماس الذي غمرته بذات التراب الذي غمرت به قبر أُمِّي. شعاع ضوءٍ بدأ ينفذ إلى ظلمة عقلي كشعاع نافذتي حين كانت تزيح عنها الستائر ليغشى عينيَّ الضوء. حسبتها إشاراتٍ خفية وردتني منها بعد تصريحاتها التي لم تعد مبلوغة. وصوتها الذي لم يعُد مسموعًا. وقلبها الذي ما عاد ينبض منه إلا شطران صغيران تركتهما بين ضلوعي أنا وشقيقتي سماح منذ ولادتنا.

قمت وانصرفت من العمل عائدًا للبيت، وقد عزمت على إتمام ما بدأته من أعمال. فقط لعلَّها ترضى عني وتطمئن.

وصلت للبيت لألتقط ما أشُدُّ به أزري. صببت القهوة ثم تحرَّكت قاصدًا غرفتي، فمررتُ بالردهة، خِلتُ أمي تجلس على أريكتها الحزينة تُشاهد التلفاز الذي كان مُغلقًا تكتسي شاشته بسواد الحُزن. رفعت يدي أُحيِّيها بوجعٍ ظننتها من موقعها تُدركه. دخلت غرفتي لأجلس على مكتبي وأتصفَّح ذلك الملف الذي نسيت في أيامي السابقة كل تفصيلاته.

ظللت أشحذ همَّتي وأستحضر تركيزي حتى بلغت منه ما مكّنني من قراءة الملف بفهمٍ مقبول. التمست في زيارتي للطفل ما سيُخرجني من كآبتي. اتصلت بالسيدة ريهام مُضطرًّا من هاتفي، فرحَّبت بي ولامتني على تأخُّر الزيارة، فعزوت ذلك لظروفي دون أن أشرحها، فليس لائقًا أن أُقحمها في ظروفي الشخصية.

بدَّلت ملابسي وتحرَّكت مُستقلًّا سيارة أجرة. جلست على أريكتها الخلفية وبيدي الملف الذي بقيتُ أُراجع ما فيه كالطالب الذاهب لاختبار نهاية العام. زاد من شعوري هذا دعوة السائق لي بالتوفيق حين شاهدني مُتمسِّكا بمُطالعة الملف أثناء شراء الحلوى للطفل.

وصلت بذات طقوس كل مرة. دعتني السيدة للجلوس ثم استأذنتني في الذهاب لإحضار الطفل، فطلبتُ منها البقاء لمناقشتها في بعض الأمور أولًا. جَلَسَتْ باهتمامٍ وإنصاتٍ وتربُّص، فصارحتها بأن حديثي مع والد الطفل لم يسِر على وتيرةٍ واضحة، بعض المعلومات الواردة بملف الطفل باتت ملتبسة عليَّ، وثمة دلائل ساقتها صحيفة الدعوى ليست في صالحها. اسْتَفْهَمَتْ مني عن قصدي فأجبتها: (ليس من صلاحياتي البوح بما لديَّ من معلومات، ولكن من حقِّك أن تُبدي ما تودِّين من ظروفٍ أو تبريرات. تقريري في جميع الأحوال لن يُلزم القاضي؛ فالمطلوب مني هو وصف واقع الطفل والتوصية بما فيه مصلحته. فهل لديك ما ترغبين في إيضاحه لنفي تلك الادِّعاءات الواردة بصحيفة الدعوى القضائية أو دحضها؟ أعلم أن المحكمة أخطرتكِ بنسخةٍ منها).

- لست أدري أستاذ رائف. رغم أن مدحت لم يكن ذلك الزوج المُخلص الذي يستحق أن أُخلص له، لكنني أُقسم لك إنني لم أخنه. كنت فقط أفتقد السند. حاولت إقناعه بأن نُسافر معه، لكنه رفض الأمر رفضًا باتًّا.

- اعْتَقَدْتُ أنكِ أنتِ من رفض صُحبته في السفر.

- على العكس، لقد وصل الأمر لدرجة أنني طلبت من عائلته التدخُّل لإقناعه باصطحابنا معه، فلم يستجب لهم! وحين تردَّدت على عيادة ابن خالي كُنت أمرُّ بأزمةٍ صحية بالفعل، لكنه استغلَّ الأمر ليُضاعف عدد الزيارات دون داعٍ. أظنه كان يرغب في الاستماع لي أكثر من أي شيء، وأنا أيضًا كنت بحاجة للفضفضة والحديث لشخصٍ قريبٍ مني، فكنت أذهب لعيادته رغم زوال شكواي العضوية.

كدت أُقاطعها لأقول لها توقّفي لولا أن المفاجأة أخرستني! ليس هذا ما كنت أنتظره بالمرَّة. حديثي كان عن مواعيد الرؤية! لقد فاجأتني بحديثٍ لم أنتظره منها! وتُحاول تجميل قُبحه بوقاحة. سألتُها بضجر: (أهذا اعتراف منك بخيانتك له؟).

- أقسمت لك أنّني لم أخنه. لقد قصصت عليك كل ما حدث بكل تفاصيله.

- لكن الخيانة كما تكون بالفعل، تكون بالقول.

- إفاضتي لابن خالتي لم تكن بمشاعر أو أحاسيس جسدية إن كنت تظن ذلك. وحدتي التي شكوتها له كانت بسبب ثقل المسئوليّة عليَّ. غُربة المشاعر. أنا كنت شابة حديثة الزواج، كثيرة الاحتياج، وقليلة الحيلة والخبرة.

- (مُقاطعًا بحسم) أنا حقًّا لا أفهمك؟ ما نوع حديثك مع قريبك ذاك؟

- حديثٌ بعيدٌ كل البُعد عمَّا في رأسك.

شعرت بأن الأمور قد اختلطت عليَّ! لم يعد حديث السيدة بدورها يُقنعني! ماذا عساي أن أفعل وقد صدمتني؟ أحسبها الآن خائنة ولو بالقول أو النية! مُخطئة هي الأُخرى! مُتهوِّرة بزيارتها لطبيبٍ لم يفرضها عليها احتياجٌ طبيّ! انفرادها مع من خَطَبَ يومًا وُدَّها وطلب الزواج منها! التفافها في الحديث ومُحاولاتها لتبرير ما فعلته يُرسِّخان شكوكي! تراجعها لن يُجدي معي الآن.

بدأت السيدة وصلة جديدة من التبريرات، لكنني لم أعد أُميّز صوتها، أصابني اشمئزازٌ شديدٌ منه ومنها، أظن ذلك كان جليًّا على وجهي، ممَّا دعاها للاستمرار والإمعان في تحسين صورتها.

قَطَعْتُ حديثها الذي لم أكن أسمعه طالبًا بحسم إحضار الطفل. نظرت لي والدهشة تملأ وجهها، ثم قامت كالغاضبة من صديقٍ لم يُصغِ إليها، وكأنها تلفت انتباهي وتقول لي إن الاهتمامُ لا يُطلب!

زَفَرْتُ بعدها زَفْرَةً أخْرَجْتُ بها بعض ما أثقل صدري من مشاعر متضاربة.

وإن كانت السيدة أفضل حالًا من مُطلّقها، إلّا أن كليهما بائسان في نظري! أظنني سأضطرُّ قبل كتابة تقريري للبحث في بعض المراجع الاجتماعية للارتكان إليها في تقييم الوضع واختيار أنسبهما لحضانة الطفل.

حضر الطفل وقد اكتسى وجهه الأبيض البريء بالخجل الممزوج بالحزن. كان يقترب بخطواتٍ مترددّةٍ كالزيارة السابقة، فأخرجت له الحلوى وأنا أدعوه لقبولها. نظر حوله فلم يجد أمَّه ليستأذنها، فأخبرته أن تصريحها لا يزال ساريًا منذ الزيارة السابقة. لباسه الرياضي ذكّرني بتلك البطولة التي أجَّلنا الموعد السابق بسبب مُشاركته فيها. سألته عن نتائجها، فأخبرني بحُزن وهو ينظر للأرض بأنه لم يُحرز أي مركزٍ مُتقدمٍ رغم بذله الاستعداد اللازم.

وجدت نفسي أحتضن الطفل وأضمُّه بقوةٍ خشيت أن تكون مُخَالِفَةً لتعليمات الوظيفة وواجباتها التي كثيرًا ما انتهكتها، لكنني كنت أُشفق عليه جدًّا. لقد وُجِد في ظروفٍ لا يستحقّها، ليُعاني رعونةً لا أُبرِّئ منها أيًّا من والديه. بأي ذنبٍ كُتبت عليه لوعة القلب هذه؟ بأي جريرةٍ يدفع هذا الثمن الباهظ من طفولته ومستقبله؟ فتتساقط أحلامه من بين يديه!

(موعد نومي اقترب).

قالها ببراءةٍ وكأنما يحُثُّني على إنهاء تلك الزيارة التي أوجعت قلبه الغضَّ الصغير. طلبت منه الجلوس، فجلس بجواري. تلفَّت في أوراقي واعتصرت عقلي العاجز عن اختيار سؤالٍ مناسبٍ لطرحه عليه! كانت مشاعري متأجِّجةً مُتضاربة. أعدت صياغة ذلك السؤال الفج الذي كان يطرأ لذهني كلّما قابلته فلا أَقْوَى على طرحه. هذَّبتُهُ قدر استطاعتي. ابتلعت لُعابي بصعوبة ثم قلت: (حسنًا. لن أُطيل عليك، ولكنني سأسألك سؤالًا أخيرًا. هل رصدت من أيٍّ من والديك تصرُّفًا لم يُعجبك؟).

ظل الطفل ينظر لي بصمت حسبته أول الأمر بلاهة من لا يفهم، لكن تبيَّن لي أنه ليس كذلك حين قال: (لم أرَ أبي يومًا إلا حين يأتي ليتشاجر مع أمِّي أو جدَّتي. أخشاه في هذا الوقت وأختبئ

في غرفتي. أسمعُ أمِّي تقول له إنه واهم، وتُقسم له إنها لم تفعل ما يظنه. أنا أَصدِّقها؛ فهي لم تقسُ عليَّ يومًا. لذلك أُحبُّها كثيرًا). كتبت ما قاله حرفيًّا، وأنا لا أنتظرُ من طفلٍ في سنِّه وظروفه أن يكون أكثر فصاحةً وبلاغةً من ذلك. سألته وأنا آمل أن يُصيب هدفي: (ألم تَرَ على أمِّك أيّ مظاهر تُخيفك؟ هل تتركك وقتًا طويلًا وتغيب عنك؟ أو تتركك لجدَّتك أيامًا طويلة؟).

- لا. حينما أكون عند جدَّتي تكون أمِّي معنا.

- لكنني حضرت لها من قبل وكانت وحدها بالمنزل.. أقصد أنا وفرد الأمن.

- بالتأكيد كانت تُحْضِر ملابسي فقط، فأمِّي لا تتركني أبدًا.

قمت لأكون في مواجهته. انحنيت وربتُّ على كتفيه طالبًا منه أن يُشارك في البطولة القادمة باستعدادٍ أكبر، فأنا سأحضر خصيصًا لتشجيعه، ولن أتنازل عن حصوله على أحد مراكز الصدارة. أومأ برأسه ببراءةٍ صرت أعشقها. قبَّلت رأسه وطلبت منه أن يذهب لينام في موعده، فقام وهو يبتسم لي ابتسامةً شعُرْت أنها ما ارتسمت على وجهه إلّا لترجوني أن أتركه لأمِّه، فابتسمت له بإيماءةٍ رجَّحت أنها ستكون كفيلةً بإثلاج صدره.

تحرك الطفل تاركًا خلفه الحلوى وقد هَنِئَت نفسه بما تلقَّته من رسالةٍ نَقَلَتْها له ابتسامتي الواعدة فأغنته عنها، فالتقطتها وأنا أنهض من انحناءتي وقدَّمتها له. أخذها ثم ركض ليختفي.

ظهرت أُمّه فبادرتُها وأنا أُدوِّن آخر ملاحظاتي بأن زيارتي هذه هي الأخيرة. رجتني بعينٍ دامعة أن أكون في صفِّها، فأخبرتها بأن توصيتي سِرِّية لا أستطيع البوح بها، لكنني لن أُخفيها سرًّا إذا أكَّدت لها أن التوصية ستكون في صالح الطفل البريء شريف. قلت هذا ثم انصرفت.

قفزت في أول سيارة أُجرة مرَّت أمامي، ووجّهت قائدها لينطلق بسرعة سالكًا طريق البيت، ولتنطلق أفكاري بسرعةٍ جاوزت سرعته.

نظرتُ لملفي وأنا أتأمَّل في حال الطفل، فأنا لم أَرَ في الحياة أشقى من نشأة النبتة في أرضٍ مسمومة، ماؤها كَدِر. تلك نبتةٌ بَوَارُها محتوم، ولو استقام عودها لدمَّ زهرها، ولو حَسُنَ زهرُها لمَسُخ ثمرُها.

ما ذنب ذلك الطفل المولود لأبٍّ مستهترٍ أخرق انحاز لهواه فآثر السفر بمفرده، متخلِّيا عن عصمته لنفسه ولزوجه، وأمٍّ مُنقادةٍ حمقاء أخرجتها وحدتها عن صوابها وساقتها للبحث عن صُحبةٍ ووَنَسٍ دون تدبُّرٍ أو تمييز لمن يصلح لذلك؟! ما ذنبه إذ يُصارحه والده بسلوك أُمّه في أبشع أوصافه، فتختلُّ بلا ريب أفكاره ويَشِتُّ ذهنه وينكسر قلبُهُ قبل عينه؟ ما ذنبه إذ ينشأ في كنف أمٍّ باتت ناقصةً عاجزةً عن الوفاء بحقوقه وقد أعوزتها حقوقها واحتياجاتها فضلّت الطريق سعيًا لبلوغها؟!

عدت للبيت أتأمَّل تصوُّراتي السابقة لما سيكون عليه تقرير الطفل، فلاحظت كيف كانت أفكاري تتبدَّل بعد كلّ زيارة. بدأت أُميِّز الكذب في عينَيْ والد الطفل، والمُراوغة في كلماتِ والدته،

فازدادت نقمتي عليهما، فما كُنت أجد للكذب مُبرِّرا أبدًا، لطالما تعرَّضْتُ للضغوط والمواقف الصعبة فما لجأت للكذب ولا لمست فيه منجاة، وهكذا كنت أحسب غيري، لكن الأمر يبدو مغايرًا عند البعض، فأصبح الكذب هو القاعدة والأصل المُفترض لديهم. بات عليَّ أن أفترض عكس ما أسمعه دون تفكير لأُصيب الحقيقة! أن أُرتّب على النفي إقرارًا! وأفهم من الرفض قبولًا! وأُترجم الوُدَّ بُغضًا! أيُّ منطقٍ هذا!

اتصلت بشقيقتي واطمأننت عليها وعلى حال زوجها، فمنذ وفاة أُمِّي وأنا أُواظب على مكالمتها كلَّ صباحٍ ومساءٍ عملًا بوصية أُمِّي. كُنت أُتابع سلوك أحمد الذي علمت أنه ظلَّ وفيًّا بعهده لي، فأقسمت عليها أن تُخبرني إن حَنَثَ لأرُدَّه لعقله. كُنت أُكرِّرُ عليها أنها صارت في أمانتي ولن أتخلَّى عنها. كانت سعادتها بالغة بحديثي هذا، ودعت لي بذات دعوات أُمِّي. كان صوتاهما مُتشابهين أيضًا.

انكفأت على مكتبي حتى الواحدة صباحًا لأُنهي هذا التقرير الذي أفرغت فيه كل مشاعري وأفكاري عن حال الأُسرة. وكل ما وجدته مُناسبًا من نظرياتٍ نقلتها من مراجعي، ثم تركت خانة ترجيح الحاضن لأضعها صباحًا بالاشتراك مع أكرم؛ فقد خشيت أنني لست بتلك الحالة النفسية الصالحة لإصدار توصيةٍ كهذه.

أعددت حقيبة العمل وحشوتها بملفاتي، ثم خلدت للنوم.

* * *

استقبلني عماد هذه المرة وأنا في طريقي لمكتبي. لمحت ابتسامةً في وجهه لم ألحظها من قبل، فطلبت منه بابتسامة أن يتبعني إلى مكتبي. جلست وأنا أطلب منه الجلوس، ثم أخرجت تقرير الطفل شريف من حقيبتي وطلبت منه أن يقرأه. كان يقرأه بعناية وتركيز ثم ابتسم لي قائلًا: (أظنك ستوصي ببقاء شريف مع والدته).

- ما زلت لا أعلم يا عماد. والدته ليست بذلك الرُّشد الذي تتوقّعه.

- لا يوجد إنسان كامل يا أستاذ رائف. أظنها أحرص على الطفل من والده الذي تعمَّد السفر وحده للتخلّي عنها في وقتٍ أراها كانت شديدة الاحتياج له. تخلّى عنها لغرضٍ أظنه غير سويٍّ!

- ربَّما. ولكن هذا لا يُبرر لها فعل ما تُريد! ألم تُفكِّر في نظرات المجتمع الشرقي لها وعلامات الاستفهام التي قد تثور حولها لتصرُّفٍ رُبَّما يكون في حقيقته بريئًا؟! ألا تعبأ بما سيظنه زوجها إن علم بهذا التصرُّف؟! بالتأكيد هي لم تكن تُصارحه بما فعلت. وهذا يعني أنها كانت تُدرك أنه خطأ.

- ومن قال لك إنها تعمَّدت إخفاء الأمر عنه؟

- هذا ما شعرته. بدليل أن ردَّة فعله حين علم بسلوكها كانت بالغة القسوة.

- لا أعلم. أظن أنها كانت ستُصارحه بما فعلت لو سألها. هي لم تكن تُدرك خطورة سلوكها.

ضاقت عيناي وأنا أنظر لعماد بتركيز، مُتأمّلًا فيما يقوله قبل أن أُجيبه: (لا أظن ذلك. لكن أتدري؟ الأمر وارد. أخبرني إذًا هل أعجبك التقرير في مُجمله؟)، فأعاد التقرير لي وهو يقول: (بالتأكيد. أسلوبك رائع. أنا مُتشوّق لفحص الحالات وإعداد مثل هذه التقارير. أنا بدأت أنجذب لهذا العمل).

- الأمر بالفعل مُشوِّق. عدني إذًا أن تهتمَّ بالأمر. وأنا من جانبي سأطلب من أكرم تزويدك بملف أو اثنين لتبدأ العمل الحقيقي.

- هذا عظيم. أنا بالفعل مُهتم.. ولكن.. لي طلب آخر.

- ما هو؟

- عدني أن أكون مُساعدًا لك في يوم من الأيام.

شردت وأنا أنظر له بحب، ثم قلت له: (أعدك بأن أُصرَّ على أن نكون زميلين، ونتشارك في كل الملفات. أنا بالفعل استفدت من حديثنا المُقتضب اليوم عن ملف شريف).

حضر أكرم لينتفض عماد واقفًا ملتمسًا المُغادرة، فغمزت له وأنا أُصرِّح له بذلك، ثم قدَّمت الملف لأكرم، وطلبت منه مُراجعة التقرير بدقة وحذر، فأنا ما زلت مُرتبكًا مُتشكِّكا فيما أبليته، خصوصًا بعد ما مرَّ بي من ظروف. شدَّ أكرم على يدي طالبًا مني أن أطمئن، فتقريري السابق أثبت له تفوُّقي، ووعدني بأنه في جميع الأحوال سيُراجع كل كلمة فيه قبل اعتماده، وحَضَّني

باستحياءٍ على أن أخوض في الملف التالي؛ فالوقت ينفد، فوعدته بذلك وقد اكتشفت أن العمل بالفعل هو المخدر الوحيد لهمِّي وحَزَني، المُنفِّث الأفضل لضيق صدري.

استوقفت أكرم وهو يُغادر الغرفة، وطلبت منه توزيع ملف أو اثنين على عماد، فوعدني بأن يتدارس الأمر، ثم سألني بنظرة خبيثة: (ما آخر أخبار همس؟).

كان سؤاله غريبًا ومُفاجئًا لي، فهو يعلم جيدًا أننا افترقنا منذ أشهر. سألته باستنكار: (وما المُناسبة؟).

- تذكَّرتُها حين شاهدتُها في العزاء.

- حضورها للعزاء أمر طبيعي ومُتوقَّع، فهي مازالت صديقة شقيقتي سماح.

- تُرى هل تَزَوَّجَتْ؟

- تعلم أنني منذ فراقنا لم أُحاول معرفة أخبارها. ولكن... ما غرضك من كل هذه الأسئلة؟

نظر لي نظرةً خبيثة وهو يقول لي: (لاحظت خلوَّ أصابع يديها من خواتم الخطبة أو الزواج، فأردت التيقن من المعلومة، ومعرفة ما إذا كُنت لاحظت أنت ذلك أم لا)، ثم استدار قاصدًا باب الغرفة ليُغادر وهو يُتابعني بنظره، فأجبته بارتباك: (بالطبع لم ألاحظ أي شيء في تلك الظروف العصيبة)، فانصرف وردَّ الباب خلفه.

جلست شاردًا وقد تملَّكني شعورٌ بالشجن والحزن، مازالت تراودني حالة من الخمول. فتور في المشاعر. افتقار للحافز. حالة من اليأس تنتابني منذ وفاة أمِّي التي ترك رحيلها فراغًا لم أتوقَّعه!

التفتُّ إلى النافذة ونظرت من خلالها للسماء، وقد شعرت بأن أبي وأُمِّي يرمُقانني بابتسامتهما الطيِّبة الحنون، ويقولان بفخرٍ وشغفٍ شديدٍ لملائكةٍ ذوي أجنحةٍ بيضاء أحاطوهما: (أترون؟ هذا هو رائف ابننا الذي نُحدِّثكم عنه).

مرَّ اليوم بطيئًا بعض الشيء، لكنني تمكَّنت خلاله من دراسة ملف أمجد، وقبل مُغادرتي مرّ بي أكرم ليُثني بسعادةٍ بالغة على التقرير الذي قدَّمته له قائلًا: (ناقشت المُدير في ملفَّيْ ميساء وشريف، وقد لاحظنا أنك تبذل جهدًا ملحوظًا في كتابة تقاريرك، وتدعمها بالكثير من المعلومات والتقييمات غير المطلوبة منك، وهو ما يُميِّزك عن غيرك من الموظفين).

- (بشغف) وماذا عن التوصية النهائية التي طلبت منك وضعها؟

- لا أرى داعيًا لذلك. سأترُك الأمر لك. أنا أثق تمامًا بأنك ستضع التوصية المُناسبة، فأنت أكثر تشبُّعًا بالملف وأشخاصه مني.

- حسنًا يا أكرم. أُثمِّن ثقتك الغالية. (وأردفت مُستدركًا) هل وزَّعت أي ملفات على عماد؟

- ناقشت المُدير في هذا الأمر أيضًا، وأبلغني بأن علينا الانتظار قليلًا، فعليه أولًا أن يُتابع زملاءه ويقتبس من خبراتهم قبل أن يحتكَّ بالحالات... صحيح... لقد مرَّ عماد على مكتبي وأبلغني بأنه يشعر بوعكة، فأذِنت له بالانصراف.

التقطت هاتفي واتّصلت لأطمئنّ على عماد وتمنيت له الشفاء العاجل، وبعد أن أنهيت المكالمة شكرت أكرم بامتنانٍ شديدٍ وابتسامةٍ كانت هي الأُولَى التي ترتسم على وجهي منذ وفاة أُمِّي، فاحتضنني مُرحِّبًا بعودتي، وأصر أن يدعوني للغداء بأحد المطاعم الفخمة. لم أستطع التنصُّل منه، وتناولنا وجبة غداء كانت الأولى أيضًا منذ رحيلها. تطرَّقنا أثناءها لذكريات الجامعة والمقهى والأصدقاء المُشتركين، كما استفهمتُ منه عن قصده من حديثه بشأن همْس، فقال لي: (أتعلم... لقد لاحظتُ نظراتها الممتدّة الحالمة لك طوال العزاء، وهو ما دعاني لاختلاس النظر لكفَّيْها لفهم ما يجري!)

- أنا لم أنتبه لها إلا حين مرَّت بي لتعزيتي. لكن... من الوارد أن تَلْتَفِت لي من آن لآخر بحكم خُصوصية علاقتنا القديمة.

- لكن نظراتها توحي بأنها مازالت مُهتمَّةً بك. أظن أن في قلبها بقايا مشاعر تجاهك. أتفهمني؟

كان نبض قلبي يتصاعد مع تلميحاته تلك، فطلبتُ منه تغيير الموضوع، فالوقت ليس مناسبًا بالمرَّة للحديث فيه، فاستجاب لطلبي، وعُدنا للحديث عن ذكرياتنا القديمة، حتى مرَّ الوقت.

افترقنا أمام الباب لأقفز في سيارتي سالكًا طريق البيت، ليستبدَّ بي قلبي وقد تذكَّر ليالي الحُبِّ والهيام. كُنت صدقاً قد فقدت أثر همْس منذ افترقنا، لاسيما وأنهم غادروا بعدها بيتهم القديم إلى بيتٍ جديدٍ لا أعلم موقعه. أعتقد أن سماح ما زالت على اتصال بها. لا بأس. من المُمكن التطرُّق معها لهذا الأمر لاحقًا، فالوقت غير مُناسب بالفعل. بالإمكان فتح هذا الموضوع معها بشيء من الخُبث حين أكون في إحدى زياراتي لها، أو عندما أُقابلها هي وأحمد على وجبة الغداء التي اعتدنا الاجتماع عليها كل يوم جمعة ببيت خالتي.

مررتُ بالبيت لتبديل ملابسي والاغتسال، وراجعت تلك المقالات والأوراق التي كتبت اسم أمجد على أطرافها، فزاد حماسي لرؤيته، فغادرت واستقللت سيارتي قاصدًا المصحة.

كان الطريق مُزدحمًا واستغرق ضِعف الوقت الذي قدَّرته له.

كان وجه أمجد هذه المرة أقل شحوبًا، كما لم أجد يديه مُقيّدتين في فراشه كالزيارة السابقة، فتوسَّمت أن تكون هذه الزيارة أكثر إثمارًا. بادرته فور أن نظر لي: (كيف حالك اليوم؟)، فهزَّ رأسه في صمت. جلست إلى جواره وأمسكت يده برفق فجذبها بعصبية، فتتبَّعتها وأمسكتها مرة أخرى بإحكام. كانت برودتها شديدة، أصابتني بالقشعريرة.

اقتربت برأسي من أُذُنه قائلًا: (جئتُ اليوم لأسمع منك كما اتفقنا. لن أتحدث). ظل صامتًا فردَّدت عليه ذات العبارة بودٍّ تعمّدت زيادة جرعته. نظر لي متأمّلًا قبل أن يسألني: (لماذا تريدني أن أحكي؟)، فأجبته بعُمق: (ومَنْ مِنّا لا يُريد أن يحكي يا أمجد؟ القلوب تمتلئ بالحديث وتتوق لمُستمع، وقلبي أولها)، ثم اعتدلت وأردفت له بمِهَنِية طبيبٍ نفسيٍّ: (احكِ لي عمَّا تتذكَّره من حياتك قبل تجربتك الصعبة هذه).

أدار وجهه بعيدًا ليبدأ في الحديث: (يقولون عني أنّني شخص انطوائي، لكنني أبعد ما يكون عن ذلك. أنا فقط لا أشعر بقيمتي بين أقراني وزملائي، فصرت أميل لاعتزالهم.. كنت ذات يوم رياضيًّا، لكنني تركت الرياضة مبكِّرًا بعد أن أخفقت في تحقيق أمل أُمِّي في أن أكون بطلًا في لعبةً التنس... أنا متوسِّط المُستوى في دراستي، لكنني التحقت بالتخصُّص الذي تمنَّاه والداي في جامعةٍ خاصة. «واستدرك» وكُنت أنجح آخر العام).

طلبت منه الحديث عن والديه، فأجاب: (والدي يقضي أغلب وقته في العمل خارج البيت. لا نراه تقريبًا إلا في موعد النوم. أُمِّي رغم وجودها الجسدي إلا أن ذهنها مشغولٌ بالحديث مع صديقاتها أو بث فيديوهاتها على الإنترنت). قاطعته باندهاش: (أيُّ فيديوهاتٍ تقصد؟)، فابتسم بسخرية قائلًا: (فيديوهات حول الانسجام والسعادة الأسرية. عن الأسلوب الأمثل لتربية الأبناء. أُمِّي تملك موقعًا لهذا الغرض).

لم أتمالك ابتسامتي أو أتمكَّن من كتم ضحكتي الساخرة الخارجة من صدري رغم محاولاتي الجاهدة لذلك، فما من تعليقٍ مُناسبٍ على ذلك سوى الضحك! فقد رأيتُ كثيرًا من أولئك الهواة يبثُّون النصائح، والوصفات، والتوصيات، والتحذيرات. لا أعلم ما هو تأهيلهم، ولا أجد حديثهم مقنعًا بالنسبة لي، لكن كثافة مُشاهداتهم والتفاعل على صفحاتهم أمرٌ يدعو للقلق! فمن يستمعون لهذا الهزل سيقعون ضحايا لتلك الوصايا السطحية الساذجة، التي لا تستهدف أي حلول أو مُساعدات بقدر ما تهدف لجمع المزيد من المشاهدين. نمط تُجاري جديد ظهر في عصر التكنولوجيا!

تنبَّهت لأمجد الذي كان ينظر لي، فداعبته: (بالتأكيد سنجد الكثيرين من ضحايا السيدة والدتك في العنابر المُجاورة)، فابتسم لأول مرة قبل أن يقول: (تمنيتُ أن تهتم بي نصف اهتمامها بأولئك الذين يُراسلونها على بريدها الخاص لعرض مشاكلهم عليها أو طلب النصح لأبنائهم. أتعلم أنني اصطنعت حسابًا إلكترونيًّا باسمٍ وهميٍّ، وصفت فيه بعض مشاعري ومُنغِّصاتي، وطلبت منها مُساعدتي في أزمتي؟ فأجابتني في ذات اليوم بمقال أكاديمي نسخته من أحد المواقع ونسبته زورًا لنفسها)!

- وهل التزمت بما في المقال من نُصح؟

- لم أفهمه. تستطيع القول إنني لم أُحاول فهمه، فأنا فقط كنت أبحث بين سطوره عن أمِّي، وللأسف لم أجدها.

- وماذا فعلتَ بعدها؟

أدار وجهه بعيدًا قبل أن يُجيبني بحرج: (أرسلت ردًّا على رسالتها يحمل سبابًا بأبشع الألفاظ).

- ماذا؟! كيف تجرَّأت على فعل ذلك؟!

- كثيرًا ما حاولت مُفاتحتها فيما أُعانيه فأعربت عن انشغالها وتهرّبت مني، فما بالها تردُّ على

الأغراب في ذات يوم استلامها لرسائلهم؟ ربَّما أردتُ من ذلك أيضًا أن أَثنيها عن ذلك النشاط الذي شغلها عنِّي وعن إخوتي الصغار، ظننت أنها لن تتحمل ذلك السبَّ وستُغلق الصفحة. هي في العادة لا تتحمَّل كلمة عتاب أو توبيخ من والدي. ظننت أنها ستقوم ثورتها ولن تهدأ، لكنني تفاجأت بشخصيتها المُفتعلة تلك. شخصية باردة تتقبَّل سباب الأغراب بصدرٍ رحب. أجابتني برسالة تشكرني على ما تضمَّنته رسالتي وتدعو لي بالهداية!

كان أمجد يلهث، وكان داخلي يلهث كذلك وقد قفز إلى ذهني ذلك التحوُّل الذي أصاب العديد من الأصدقاء الذين أراهم على صفحات تلك المنصات بسِماتٍ تختلف تمامًا عن سِماتهم الشخصية التي أعلمها جيدًا! يُردِّدُون حديثًا وعبارات ومبادئ تختلف تمامًا عن مُعتقداتهم. ينتحلون شخصيات أُخرى لا أعرفها! إنها حالة من ازدواج الشخصية تُسمَّى في علم النفس «اضطراب الهوية التوافقي» انتشرت بين الناس بمُسبِّبات لم تكن هي ذاتها التي درسناها في الكلية.

من يعلم؛ من الجائز أن يُعرض عليَّ بعض ضحايا هذه الظاهرة قريبًا ضمن ملفات هذا العمل.

أدركت أن أمجد عانى من عَرَضٍ بسيطٍ قد يتعرض له أغلب أبناء عُمره، وكان على والديه أن ينتبها له! انتظر سؤالهما ليبوح لهما بما يعتلج بصدره فلم يُبادرا! أفصح لهما بشكواه فلم يجد تفاعلًا منهما أو اهتمامًا، فلجأ لتلك الحيلة ليجد من أمِّه الإلكترونية استجابةً لم يجدها من شخصها، فلم يأبه بفهمها، وازدادت نقمته؛ فحب الوالدين لابنهما لا اصطناع فيه. رسائلهما ونصائحهما لا تصله إلا إذا صدرت بصوتهما الحنون المُحبِّ، المُفعم برائحة أنفاسهما الدافئة، مقرونةً بالخصوصية، وهي الأمور التي لا توفِّرها تلك المنصات والمواقع مهما علت سرعة بثِّها.

فهمت من حديثه أيضًا أن الأمر لا يقف عند حد شعوره بالنقص أو الدونية، وإنما تجاوزه للشعور بالضياع وفقدان الأمل. انعدام القدوة وسوء الإرشاد. لعلَّها ضغوط الأمِّ لدفعه للتفوُّق في رياضة التنس. إخفاقه في تحقيق رغبتها أثار غضبها وأشعره بعدم الثقة في النفس. رغم أن ممارسته للُّعبة في حدِّ ذاته كان تفوُّقا يستحق المكافأة عليه. كان حمايةً له مما تردَّى فيه من ارتباكٍ وخللٍ نفسيٍّ أتبعه بالانحراف! إنها الأسباب التي تناولتها أبحاث الإدمان الشائعة الرائجة. سأحتاج لمراجعة بعضها قبل أن أُدلي بدلوي. عليَّ الاكتفاء بالاستماع في هذه الزيارة.

ربَّتُّ على يده وطلبت منه الاستمرار في الحديث، فتنهَّد ثم قال: (لا شيء لديَّ لأقوله. أشعر بأنني فقدت والديَّ رغم وجودهما على قيد الحياة. صرت ألتمس النصيحة من الغرباء! من الأصدقاء الذين رأيتهم أكثر نجاحًا في حياتهم وفي علاقاتهم بأهلهم وذويهم، والذين كُنت أحسب يومًا أنهم أولى بالنصح مني). عقلي وخزني بأن تلك المرحلة كانت بداية الشعور بالدونية.

نظرت للساعة لتقع مني الأوراق وكأنها قفزت من ملفها وقد أثارتها شكوى الشاب فأخرجتها عن صمتها. لملمتها بيدٍ باردةٍ برودة قلبه الذي طال حرمانه من دفءٍ كان بحكم الطبيعة وناموسها مُستَحَقًّا! افْتَقَدَ هَدْيَ والديه الحيَّين فعدَّهما من الأموات، بينما أعيش أنا على هَدْيِ والديَّ المُتَوَفَّيين

وقد عددتُهُما حيَّينِ يُرزقان.

طلبت منه بتردُّد اسم ذلك الموقع الذي تبثُّه والدته؛ لمُطالعته، وقد أمسكت لساني الذي أوشك أن يستطرد ليُفصح له عن رغبتي في سبِّها أنا الآخر طالما أنها لم تتزعج من ذلك. كتبته على ملفي قبل أن أحيِّيَه بحرارةٍ وأُغادره على وعدٍ بلقاءٍ قريب.

مررت على مقصف المصحة واشتريت كوبين من القهوة سريعة الإعداد، قدَّمت أحدهما للحارس المسئول عن غرفة أمجد فشكرني بامتنان. سألته ما إذا كان والداه يحضران لزيارته بانتظامٍ أم لا، فأكَّد لي ذلك، وأوضح أنهما غالبًا ما يحضران في فترة الصباح، فشكرته وتمنيت له خدمة طيِّبة ثم انصرفت.

أجريت الاتصالات الواجبة في طريق عودتي، واشتريت بعض احتياجات البيت التي حصرتها بنفسي لأول مرة، ما أن دخلت محل بقالة حيِّنا حتى تذكَّرت همْس.. فأول ليلةٍ تحدّثنا فيها بعد شهورٍ من تبادل النظرات عبر نافِذَتَيْ غرفَتَيْنَا المتقابلتين كانت بالمُصادفة في هذا المحلّ. حين توجَّهت يومها لشراء بعض الاحتياجات لأُمِّي، فوجدتها تُملي على البائع احتياجاتها. ظللت صامتًا مُفتعلًا انشغالي بفحص المشروبات والعصائر بينما كُنت أسترق النظرات إليها، كانت تتحرَّك مع البائع لانتقاء احتياجاتها، إلى أن اقتربت مني، فالتفتت لي. التقت عينانا عن قرب للمرَّة الأولى. تجمَّدتُ أنا تمامًا بينما بادرتني هي قائلةً بابتسامة: (كيف حالك يا رائف؟).

تملَّكني الذهول، كيف عرفت اسمي؟ أجبتها بتلقائية وارتباك: (الحمد لله... كيف حالُك أنتِ؟).

- أنا بخير. أراك كثيرًا عند دخولي وخروجي من منزلنا. تقف كثيرًا أمام البيت.

- بالفعل. الأصدقاء يمرُّون في ذهابهم وإيابهم لنتسامر.

- سمَّاعات سيارتك أيضًا لا تتوقَّف عن الأغاني الصاخبة التي توقظني أحيانًا من النوم.

شعرت بالحرج الشديد رغم أن تلك الشكوى كانت تتكرَّر كثيرًا من الجيران دون أن أُبالي. والداي وبَّخاني كثيرًا بسبب هذا الأمر، إلا أنني لم أنزعج منه قبل أن تشتكي هي منه الآن! فشرعت في الاعتذار إلا أنها قاطعتني بابتسامة واسعة قائلةً: (لكن ذوقك في اختيار الأغاني يُعجبُني أيضًا).

شردت في كلمتها الأخيرة «أيضًا»! كِدت أن أسألها عمَّا تقصده؟ ما الذي أعجبها خلافًا لتلك الأغاني؟ لكن قاطعنا البائع قائلًا لها: (الطلبات جاهزة يا آنسة همْس).

ثار قلبي وانفجر ليصبَّ اللعنات على ذلك الرجل الذي أنهى حديثنا قبل أن يبدأ. لعنت ذلك الجمود والقلق الذي تملَّكني فما تمكَّنت من الاستطراد في الحديث معها. كُنت أتوق لتلك اللحظة وأنتظرها... ولكن... لا بأس. مكتسباتي تلك الليلة كانت مقبولة، فقد عرفت اسمها، كما اكتشفت أنها تعرف اسمي. يبدو أنها كانت أكثر مني جديةً في هذه العلاقة منذ اللحظة الأولى.

عُدت لأفترش سريري عاقدًا ساعديَّ خلف رأسي، وشردت في حديث أكرم عنها. تعجَّبت كثيرًا

من ملاحظته! كيف لا تضع في أصابعها خواتم خطبة أو زواج؟ لقد أخبرتني يوم فراقنا بأن شخصًا تقدَّم لخِطبتها وحاز رضا والديها! رجَّحت ذلك اليوم أنها تستحثُّني للقبول بأي عمل لتستمر علاقتنا، فقابلت حديثها ببرود وسلبية تامة. اعتبرت حيلتها تلك جرحًا لنخوتي وإهانةً لكرامتي! فتعمَّدت أن يكون ردِّي قاسيًا قسوة الصمت حين احتكمت علاقتنا إلى كلمةٍ تخرج من فمي. كلمةٍ كان بإمكاني لفظها ولو أضمرتُ نيَّتي في الحنث بها، لكنني بخلت بالإفصاح عنها! فجاء ردُّ الأيام سريعًا ليصفعني! ولأكتشف أنني أوفيت بكلمتي بعد أن فقدت همس!

حين مرَّت الأيام دون أن تُعاود التواصل معي أدركت أن ما ادَّعته كان حقيقيًّا. أنها ما عادت لي، فطويت الصفحة بيأسٍ شديدٍ. أبديت احترامًا لواقعٍ كان يدين لي بالانتهاك وعدم الاكتراث لقلبي!

تنهَّدت وأنا أُمسك هاتفي للاتصال بسماح لسؤالها عن أخبارها، لكنني تراجعت في آخر لحظة، فالوقت تأخَّر والحديث سيطول، سأستعلم منها على هامش غداء يوم الجمعة عن أحوالها.

بدأت تصفُّح مواقع التواصل الاجتماعي سعيًا لأن أخرج من تلك الحالة، مررت بصفحاتها الساكنة منذ شهور، ثم تذكّرت موقع والدة أمجد، فعرجت عليه. استمعت لبعض مبثوثاتها التي أصابت كل تخميناتي من حيث السخافة والسذاجة وسوء المُحتوى وانعدام الفائدة. كانت بئس ختامٍ ليومي الذي كُنت أستحسنه!

أغلقت الهاتف وخلدت للنوم.

* * *

وصلت العمل لأتّجه مباشرةً إلى غرفة مكتبي، حيث أفرغت ما أحضرته معي من أبحاثٍ ومراجع التمست الحاجة لوجودها، وبدأت رصَّها بالمكتبة.

فوجئت بمرور أكرم ليطمئنَّ عليَّ، فأخبرته بأن كل شيء على ما يُرام. بدا أنه كان في انتظار باقي التقارير. ففترة الاختبار ستنتهي بنهاية هذا الأسبوع. أي خلال يومين! فأخبرته بأن العمل يجري على قدمٍ وساق، وطلبت منه ألّا يقلق بشأني. ابتسم لي مؤكِّدا ثقته في ذلك ثم غادر.

انهمكت في مطالعة بعض الأبحاث والكتب التي تتناول أسباب الإدمان وعلاجاته، فوجدت أن حالة أمجد قد اجتمع بها عدة عوامل. أحسب أن أبرزها ضعف الوازع الديني، بالإضافة لضعف خبرته الحياتية وتضارُب مصادره في فهم الأمور وتقييمها. لمست في حديثه أيضًا أن إخفاقه في تحقيق طموح والديه بالبطولة الرياضية كان عاملًا من تلك العوامل. دخوله الجامعة الخاصة لدراسة التخصُّص الذي أراده والده، وليس ما أراده هو. بالتأكيد كلَّفه هذا الأمر - بخلاف تهميش رغباته الذي أعلم وقعه على النفس جيدًا - توبيخًا شديدًا واتِّهامًا بالفشل والإخفاق.

غياب القدوة. جفاف العلاقات الأسرية وما يُسبِّبه من قسوة ووحدة.

الإغداق المادي من الوالدين التماسًا لتعويض غيابهما.

اللجوء لأصدقاءٍ أعاد تقييمهم تقييمًا خاطئًا. إنها آفة رفع قيمة المفقود وخفض قيمة الموجود؛ إذ كان أمجد قبل أن ترتبك أفكاره يرى بعض أصدقائه - في أفضل أحوالهم - بحاجةٍ للنصح والإرشاد، لكنه ميَّز مظاهر استقرارهم الأُسري والعاطفي المحروم منه. لمس في احترام ذويهم لهم امتيازًا كان يفتقده. فأعاد ترتيب أولويَّاته ومبادئه قياسًا على أوضاعهم، ليرفع من قدر تلك المظاهر على حساب سلامة باقي تصرُّفاته وأفكاره التي عدّها لا تُحقّق له قدر الاحترام والاهتمام الذي تمنَّاه. فانتهى إلى تقييم نفسه ومنحها أقلَّ مراتب السوية، فتمكَّن منه الشعور بالنقص والدونية، لتزداد حدَّة ظروفه عليه ويتضاعف تأثيرها على نفسه.

المولود الأول! مشكلة طالما كانت تلفت انتباهي. أنا شخصيًّا عانيت منها كثيرًا. فحين يولد الطفل الأول تُولد معه تساؤلات كثيرة ومتلاحقة تُطارد ذهن والديه اللذين كانا قبل ذلك اليوم محض شابَّيْن لا يكادان يُعنيان إلا ببعض شؤونهما، يتلقَّيَان التوجيه والإرشاد ويطلبان الإذن أو العفو، يكشفان ويُخفيان أمورًا خشية اللوم أو العقاب، فيجدان نفسيهما بين عشِية وضُحاها مسؤولَيْن عن شخصٍ تشاركا في تكوينه ومنحه الحياة. مُلتزمَيْن بفهم بكائه دون أن يُبرِّره، وتمييز احتياجاته الكثيرة دون أن يبوح بها. إطعامه قبل أن يطلب، وحمايته من أمراضٍ لم يَشْكُ منها. يكبر الطفل كلَّ يومٍ وينضج، لتتضاعف احتياجاته، وقبل حتى أن يتأكّد والداه من وفائهما بما سلف منها، ولتبدأ ملامحه النفسية في التكوين والارتسام!

تستشف مشاعر الطفل حصول الاهتمام به قبل أن تكتمل مداركه. تُحْفَر أَسس العلاقات الاجتماعية في نفسه ممَّا يرصده من تصرُّفات والديه المتبادلة أو تجاه الآخرين. انطباعاتهما عنه تضع له صورةً وتقييمًا ذاتيًّا يحتفظ به عقله الباطن، فيلتمس من رضاهما عنه أنه جيد، ويظن العكس إن شعر بسَخَطِهما. الإصرار على الرجوع لهما قبل كلِّ تصرُّف ينجرف به إلى شخصية متواكلة غير اعتمادية، بينما تركه لهواه يقوده لشخصية شديدة الجرأة عشوائية الهوى، مُعرَّضةٍ للعديد من المشاكل! الحديث في هذا الجانب لن ينتهي! إن ذلك الاتجاه الحديث لتأهيل المُقبلين على الزواج ليس مُفتعلًا، لكنه اعتبارٌ ضروريٌّ بالغ الأهمية. سأوصي بتقنينه والعقاب على مُخالفته في أول مناسبة أرصدها.

أمجد بحاجة لاستعادة ثقته بنفسه، وهذا الأمر أراه سلوكيًّا صرفًا. يبدأ باعتقادٍ داخليٍّ يتبنَّاه، وبتعاملٍ مناسبٍ من الآخرين يدعم ذلك، من المؤكَّد أنني بحاجة لمقابلة أحد والديه أو كليهما - رغم ازدرائي لهما - فما زلت أعجب من أولئك الآباء والأُمَّهات الذين لا يفهمون خطورة أدوارهم وما عليهم من واجبات والتزامات يصعب تحمُّل عواقب الإخلال بها. الإنجاب ليس حقًّا مفترضًا أو ترفًا ولا هو بغرض التباهي والتفاخر! إنه مسئولية ممتدَّة تستدعي الانتباه الدائم والمتابعة المستمرة الحثيثة.

نظرت للساعة فوجدتها الخامسة مساءً. خرجت من الغرفة لأجد الجميع قد انصرفوا. لم أشعر اليوم بالوقت. عُدْت وجمعت أوراقي ثم غادرت العمل، وقد عزمت على أن تكون زيارتي القادمة لأمجد بنهاية الأسبوع؛ لألمس أي فارق في حالته.

اتصلت في طريق عودتي بعماد لأطمئنَّ عليه، وفور وصولي للبيت فتحت ملف حسن لأُراجع أوراقه، طالعت أيضًا بعض الأبحاث التي وضعتها بين دفَّتَي الملف لأجد نفسي مُهيَّأ لزيارته، فاتصلت بوالده الذي رحَّب بالزيارة بعد ساعة من الآن. بالكاد كان وصولي لبيتهم سيستغرقها، فقمت بتبديل ملابسي ثم انطلقت.

استقبلني والد حسن بابتسامة لم ألحظها في زيارتي الماضية لهم، أكَّدَتْ لي تلك الحفاوة التي ردَّ بها على مُكالمتي، فحسبت حينها أنني موهوم.

سألته عن أحوالهم، فأجابني بقنوط أنه التزم بكلِّ نصائحي، ورغم ذلك بَقِيَ ابنه على حاله. كان يُتابعهم بنظره فقط أثناء مروره لدخول دورة المياه أو حين يتناول وجباته. أخبرته بأن ذلك كافٍ في هذه المرحلة، فصَمَتَ الرجل. سألته إن كان قد احترف لُعبة الشطرنج أم لا يزال مبتدئًا، فنظر لي بابتسامة نصرٍ تسلَّلت لوجهه قائلًا إنه استعاد خلال هذا الأسبوع بطولاته القديمة، وتمكَّن من هزيمة كل من لاعبوه، فطلبت منه إحضار اللعبة لأختبر قدراته.

انتبهت لنظراته التي كادت تصفعني على وجهي وتحثّني على القيام لإنهاء ما جئت لأجله والانصراف غير مأسوفٍ عليَّ. كرّرت عليه طلبي غير مكترثٍ بتعبيرات وجهه، فقام بتردُّد

وأحضر طاولة الشطرنج من مكتبة غرفة الاستقبال الضخمة، فصحت فيه لائمًا: (ألم أطلب منك وضعها في مكانٍ ظاهر؟ من الآن دعها مفتوحة ومرصوصة الشخوص على طاولة هذه الغرفة. أريد أن يراها كل عابرٍ للطريق الذي يقع هذا البيت على جانبه).

كان يرصُّ شخوص اللُعبة على الطاولة بانبهارٍ من جُرأتي. اقتربت لأجلس في مواجهته، وحرَّكت أول بيادقي خطوتين قبل أن يُكمل هو رص بيادقه البيضاء في مواقعها. اختلس النظر لي قبل أن يُبرز بيدقيه اللّذين أكاد أُجزم أنهما حركته الافتتاحية للَّعب منذ أن كان طفلًا. تعمَّدت الصياح مع كل حركةٍ لأفراد جيشي، فبدأ يُقلّدني. لمحت في هذه الأثناء خروج حسن من غرفته مرَّتين؛ لينظر إلينا من أعلى الدرج، ثم يعود بعدها ويُغلق بابه. كان قلبي يرقص فرحًا، وصوتي يعلو كلَّما ضيَّقت الخناق على الرجل الذي تفاعل معي وفاق صياحه الحدود.

عمَّ الصمت بعد أن تمكَّنت من هزيمته. شحوب وجهه رقَّق قلبي تجاهه، خشيت أن يُصاب بسوءٍ ما زُرت هذا البيتَ إلا لدرئه، فنصحته بأن يُخرج ذلك الكبت بصيحةٍ قد تُخرِج حسن من غرفته للمرَّة الثالثة خلال نصف ساعة استغرقها اللعب. ابتسم فجأة وهو يصيح في وجهي كصديقين حميمين يجلسان في مقهىً فقيرٍ لم أذق منه مشروبًا حتى تلك اللحظة. صرَّحت له أن زيارتي قد انتهت عند هذا الحدِّ. استنكر أن أُغادر دون مقابلة حسن، فقلت له أنّنا سنستدعيه ليجلس معنا في الزيارة القادمة، وطلبت منه الاستمرار فيما أوصيته به دون تراخٍ، كما نصحته بألّا يُجدِّد اشتراك الإنترنت لمدَّة شهر، أو أن يعبث بوصلاته لعلَّه يُفسدها ويستريح من أعبائه.

غادرت وأنا سعيدٌ بما أنجزته. لقد تمكَّنَّا من جذب اهتمام الفتى إلى أن للسعادة مصادر أُخرى غير التي يستمدُّها منها. أن أنشطةً بالإمكان أن توفِّي له احتياجه. ستستصرخه سعادةً أو اعتراضًا وجدلًا أو حتى حُزنًا لا بأس من التعبير عنه، فمن المُهمِّ أن يصرُخ! أظن عقله الباطن الآن يُراجع حساباته.

تلقَّيت اتصالًا من شقيقتي في طريق العودة، فأجبتها عازمًا أن أُشركها بعض سعادتي بما أنجزته مع حسن، فأذهلتني هي بخبر المولود الذي بدأ يجمع شتاته في رحمها على وعدٍ بالحضور بعد سبعة أشهر. تضاعفت سعادتي، وباركت لها ذلك المولود الذي شاء الله أن يُعيد به الفرحة لبيتنا. هنَّأت أحمد الذي كادت ضحكته تبكي من فرط السعادة. أغلقت الاتصال وقد بلغت سعادتي ذروتها. تذكَّرت والديَّ اللذين كانا سيسعدان كثيرًا بهذا الخبر الرائع، فدعوت لهما بالرحمة.

وصلت البيت وأنا أشعر براحةٍ كبيرة. عطاء الله ومنحه يسبق دائمًا منعه. وإن ظَنَنَّا عكس ذلك.

أويت إلى فراشي وأنا أحادثه كما اعتدت منذ أن أصبح رفيقي الوحيد بالبيت.

* * *

لم أذهب للعمل اليوم، فغدًا هو اليوم الأخير في فترة اختباري، ولديَّ عملٌ كثيرٌ لأُنجزه. آثرت إتمام زيارة أمجد مبكرًا لعلِّي أُصادف والديه. راجعت ملفه سريعًا قبل أن أُبدِّل ملابسي وأتحرَّك قاصدًا المصحَّة.

صادفت الحارس أمام باب المصحة وصاحبني حتى وصلنا للغرفة، أخبرته برغبتي في انتظار حضور والدَيْ أمجد لمقابلتهما، ففاجأني بأنهما لتوِّهما قد دخلا لزيارته. انتشيت لدقَّة تقديري، وأخبرته بأنني سأترك لهما ما تقتضيه زيارتهما لابنهما من خصوصية، ولأتحدَّث إليهما عند خروجهما في بعض الأمور قبل أن أبدأ أنا زيارتي له.

قضيت عشر دقائق في استراحة الاستقبال ليُشرع باب الغرفة ويخرج منها رجل وامرأة وقوران. كانا يسيران بعجلةٍ وهما ينظران حولهما بقلق رجَّحت سببه، فهما يخشيان أن يُميِّزهما أحد، فيتساءل عن سبب وجودهما. مكانتهما الاجتماعية المرموقة لا تحتمل ذلك! إنها تحتمل فقط أن يُهمِلا ويُقصِّرا في استحقاقات البيت والأبناء! أن يُشوِّها نفسية شاب في طريقه لحمل مسئولياتٍ تجاه أسرةٍ تطمح فطرته لتكوينها، ومجتمعٍ ينتظر أفرادًا أسوياء قادرين على حمل رايته وبنائه والارتقاء به بفارغ الصبر.

اعترضت طريقهما لأُعرِّفهما بنفسي، فرحَّبَا بي بجفاء وأبديا استعجالهما. عاينت ملابسي سريعًا وقد توهَّمت أن مظهري قد أوحى لهما بأنني سائل أطلب المُساعدة. وحين وجدتُ هندامي مُناسبًا أخبرتهما بأنهما مُضطرَّان لسماعي لمصلحة أبنائهما، فالأمر لن يستغرق سوى دقيقتين، ثم أوضحت لهما في عجالةٍ تشخيصي لحالة أمجد وعوامل تردِّيها. واجهتهما بها بقسوةٍ وحِدَّةٍ لم أعتد التعامل بهما مع الآخرين. أوضحت لهما أنه بالغ وناضج بما فيه الكفاية لأن يستعيد ثقته بمساعدات طفيفة أوضحت لهما دورهما المحدود فيها، ووجَّهتهما لبذل الاهتمام لأخويه الذين قد يصلا لتلك الحالة مُبكِّرا فتتمكّن منهما، ويُضحي تعافيهما منها أمرًا شاقًّا. ناشدتهما تخصيص النصيب الأكبر من وقتهما وانتباههما لأبنائهما، وأن يُوفِّرا نصائحهما وإرشاداتهما لما فيه صالحهم. أن يُغدقا عليهم بغير إسراف، وأن يبتهجا بنجاحاتهم ولو كانت محدودة لا تُرضي طموحهما؛ لتحفيزهم للمزيد منها، وألّا يسخرا من إخفاقاتهم أو يُعنّفاهم، ولكن يتدارسان معهم أسباب تلك الإخفاقات، ويُوجِّهانهم لسُبُلِ تلافيها.

كان في قلبي الكثير، لكن لا وقتهما ولا حِدَّتي كانا يضمنان قبولهما لحديثي. هَمَّا بالانصراف دون استئذان، فنصحتُ الأمَّ في عجالة بأن تبذل في البحث عن أسباب ما وصل له أمجد على مواقع التواصل وصفحات الإنترنت وقتًا وجهدًا أوفر ممَّا تبذله في موقعها السمج التافه. قلت هذا ثم استدرت لأُغادرهما فجأة ودون استئذان، مُكافحًا فضولي في رؤية وَقْع كلماتي الأخيرة على

وجهيهما.

دخلت الغرفة لأجد أمجد جالسًا هذه المرة على أحد المقاعد، فابتسمت ابتسامةً واسعةً وأنا أُخبره بأن حالته تتقدّم بسرعة مُذهلة. سألني عن سبب زياراتي المُتكرِّرة فصارحته بوظيفتي، ثم زدتُهُ قولًا بأنني مُعجبٌ بشخصيته وبرزانةٍ وحكمةٍ ألمس بقاياهما في نفسه. اتَّسعت ابتسامته فَرَبَتُّ على كتفه قائلًا: (لقد قابلت والديك الوجيهين أمام الغرفة الآن). ابتسم لي بامتنان أخجلني ومنعني من أن أقصَّ عليه ما ختمت به تلك المقابلة. نظر تجاه باب الغرفة وقال: (أتعلم أنهما مكثا معي لدقائق قليلة ثم غادرا! لم يحتملا مرَّة واحدةً البقاء معي لمدة الزيارة كاملة! كثيرًا ما شعرت بالحاجة إليهما، لكنهما كانا يخذلانني في كل مرة!) أوجعت مشاعره قلبي، فقلت له بنبرة ترجيح: (من الوارد أن لديهما ما منعهما من البقاء).

- أحسب أنه ليس لديهما ما هو أعزُّ مني. إن ما يقومان به يؤلمني كثيرًا.

- دعني أُصارحك بشيء. أراك لم تعد بحاجةٍ للبقاء بالمصحة، وجئت مُبكِّرا خصِّيصا لأقترح على الطبيب النظر في ذلك. أراك أيضًا نضجت بما فيه الكفاية، فلم تعد بحاجة لانتظار تقييم والديك لكل تصرُّفاتك، لاسيما وقد شذَّ تقديرهما السابق لك وأربك ثوابتك وفطرتك.

- لكنني مريض كما ترى. أم تراني أُقيم في الفندق؟

- دعك من هذا. أنت شاب سويٌّ يا أمجد. تعرَّضت لبعض الضغوط التي انتزعت ثقتك بنفسك، واستدرجتك - بعد أن أصابت موازيتك بالاختلال - لاقتباسات ونماذج لم تكن الأفضل. كان بإمكانك تجاوُز تلك الأزمة دون التورُّط فيما فعلت، لكن أظن أنك آثرت لفت الانتباه. وقد فعلت. أعلم أن غرضك كان لفت نظر والديك، لكنك لفتَّ نظر المجتمع بأسرِهِ لما عانيته، فاستدعيتني لأكتب تقريرًا طَلَبَتْهُ جهات الاختصاص بشأنك، وأزعم أنه سيكون له بالغ الأثر في تعميق رؤية المجتمع حيالك أنت وآخرين في ذات حالتك، وسنبحث المعالجات المناسبة له. أنت لست وحدك يا أمجد، فكثيرٌ هُم مَن يُعانون ذات مُعاناتك. أفق يا صديقي. لا تُضخِّم الأمور!

أدار وجهه بعيدًا في صمت. كان صمته يُؤلمني تمامًا كحديثه، أدرت وجهه تجاهي، فلمحت في عُمق عينيه استقبالًا وتفهُّمًا لكل ما أقول، فاستطردت بحماس: (عُد لدراستك التي اختارها والداك دون أن تضع في حُسبانك أنها كذلك. فهما اختاراها لك لرغبتهما الأكيدة في أن تكون شخصًا عظيمًا. ستتفوَّق فيها وستجد منها المفاجآت التي تنتظرك. أتعلم؟ أنا أيضًا لم أختر كليَّتي التي تخرَّجت فيها). ميَّزت نظرته المُستنكرة فابتسمت واستأنفت حديثي: (كنت أودُّ أن أكون طبيبًا شرعيًّا! لم أتحمَّس يومًا لغير هذه المهنة. لدرجة أنني تنصَّلت من وظيفتي هذه وقاومت تسلُّمها لبضع سنوات، وكان شعوري وقتها هو شعورك ذاته، حتى أجبرني والداي على تسلُّم العمل!).

قمت لأدور في الغرفة وكأن تدفُّقَ أفكاري قد استدعى حركتي لضخ المزيد منها إلى عقلي، ثم أكملت حديثي قائلًا: (ظننت أنني سأعمل عملًا روتينيًّا رتيبًا لا نفع من ورائه، لكنني قابلت طفلًا

صغيرًا يُدعى شريف، وضعه والداه بين شقَّي الرحى ليُصبح طرفًا في قضية أمام محكمةٍ لا أحسبه يُدرك أوصافها أو يُميِّز قُضاتها من حاجبها. مُخيَّرًا بين والدين يقف العالِم النفسيُّ الفذُّ عاجزًا حائرًا عن الترجيح بينهما... أتعلم ماذا قال لي؟ قال إن والدته قد خانت والده! أتتصوَّر ذلك؟! ضمَّ والده لقاموسٍ مفرداتِهِ الصغير النقيِّ لفظًا حقيرًا ما استقبله قاموسي إلا حين التحقتُ بالجامعة!).

ظلَّ أمجد يُتابعني وأنا أدور في الغرفة، فأردفت: (وزُرْت كذلك فتاة شديدة الجمال تورَّطت في سرقة ساعة زميلتها. هي ليست لصة ولا مُحتالة، ولكنها مُراهقة تتعرَّض لعُنفٍ من والديها. توجيهات صارمة وثوابت غير مسموحٍ لها بالتفكير فيها. وقد تكون ضحية حرمانٍ عاطفيٍّ وماديٍّ، فدفعها شعورها لسلوكيات مَرَضِية شديدة الخطورة، كما وقعت فريسة لتنمُّر زملائها!).

جلست مرة أخرى وقد زالت حاجتي للدوران حول نفسي بعد أن أدركت أنني بلغت نهاية رحلتي، التقطت ورقة من ملفي وقطَّعتها وأنا أنظر لأمجد بابتسامة هادئة مُحبَّة قائلًا: (لقد أدركت قيمة عملي أيضًا حين قابلت شابًّا مُهذَّبا مثلك، فتشرَّفت بمعرفته وصداقته. أتعلم؟ كنت قد رتَّبت مُحاضرةً علميةً طويلةً لأُلقيها عليك! لكنني كما ترى استغنيتُ عنها تمامًا، فحديث قلبي ساق لساني، ووصوله كان أسرع وأبرع. عليك أن تؤمن بأن الحياة ليست سائغة دائمًا، فاقتنص من حُلو أيامها شحنة تمنحك القدرة لتحمُّل تقلُّباتِها. أَنْهِ دراستك كما يجب أن تكون، وأعدُك بأن تجد مستقبلًا أفضل في انتظارك). واحتضنته بحرارة وداع من يعرفه منذ سنوات! لتدمع عيناي فجأة وأنا أسترسل بتلقائية ودون قصد: (لقد فقدت والديَّ وأفتقدهما الآن كثيرًا. استمتع بوالديك ولا تشُكَّ يومًا في حبِّهما لك. هما بالقطع يُريدان مصلحتك. ربما خانهما التعبير عن مشاعرهما، أو ضغطتهما ظروف الحياة ومصاعبها، أو عوَّلا على نُضجك واكتفائك منهما. عليك أن تبحث في كلامهما وتصرُّفاتهما كثيرًا، فستجد وجهًا من وجوهها يؤكد لك ذلك الحب).

التقطتُ منديلًا ورقيًا ومسحت دُموعي المنهمرة وأنا أشعر بأنني أختم لقاءً حميمًا مع صديقٍ عزيز. شعُرت أن تقريري أصبح جاهزًا في رأسي ولا حاجة للمزيد من الزيارات. كتبت رقم هاتفي على ورقة قدَّمتها له قائلًا: (هذا رقم هاتفي. سأنتظر منك اتصالًا فور خروجك من المصحة لأطمئنَّ عليك. اسْتَعِدْ أفكارك القديمة ومقاييسك التي كُنت عليها قبل تلك الحادثة، وستنفرج كل الأمور. بِرَّ والديك وصارحهما بما في نفسك مباشرةً. احْمِ أشقَّاءك من أن يزلُّوا زلَّتك؛ فأنت الشقيق الأكبر ولك دور لا يقل أهمية عن دور والديك).

شعرت بالحيوية تملأ وجهه الذي عاد ليُطابق صورته الجميلة الموضوعة بالملف، فزاد اطمئناني عليه. غادرت الغرفة لأقف أمام بابها أستردُّ هيئتي وأضبط هندامي، ثم عرجت على الطبيب المُختص بمتابعته وأخبرته برأيي الذي صادف تقييمه للحالة، وأكد لي أنه سيُنهي إجراءات خروجه صباح الغد على أقصى تقدير. شكرته بامتنان ثم غادرت المصحة.

تملّكني شعورٌ بأنني سوف أكون سببًا من أسباب تجاوُز أمجد لأزمته، كما عزمت على أن أكون

سببًا لحماية آخرين من تلك الظروف البغيضة.

أدرت مُحرِّك سيارتي عازمًا العودة للبيت. اتصلت بأكرم في الطريق وبادرته فور أن ردَّ بخبر إنجاز زيارتي الأخيرة لأمجد، وأنني سأضع تقريره النهائي فور الوصول للبيت، ثم أتحرَّك لزيارة حسن لإتمامها وكتابة التقرير الختامي لحالته الليلة أيضًا، ووعدته بأن أُقدِّم التقريرين والملفين صباح غدٍ. هدَّأ أكرم من روعي ونصحني بألّا أشقَّ على نفسي بإتمام زيارة حسن الليلة، فلديَّ المُتّسع حتى نهاية دوام الغد لإنهاء التقرير وتقديمه له، فالتقارير في جميع الأحوال ستُرسل في ختام اليوم للاعتماد من الوزارة الذي لن يكون قبل مطلع الأسبوع القادم، فشكرته وأنا أُصرُّ على تنفيذ ما اعتزمته، فقد كان حماسي لذلك شديدًا.

وصلت للبيت، فوضعت أوراقي جانبًا، ثم اتصلت بوالد حسن، ما أن سمعت صوته حتى صحت فيه مُداعبًا: (سأمنحك الليلة فرصة عُمرك لتأخذ بثأرك يا عزيزي. لتضمد جراح هزيمتك السابقة).

- عُذرًا سيد رائف. أنا مشغول الليلة.

- (بصدمة شديدة) ماذا؟

- أستعدُّ الآن للذهاب لاجتماعٍ طارئٍ بشركتي.

- حسنًا حسنًا. أنا أمزح. لن نلعب الشطرنج. سأمرُّ عليكم في زيارة خاطفة. دقائق قليلة.

- أمَّا أنا فلا أمزح. للأسف لديَّ مُشكلة كبيرة وأنا مُضطرٌّ للتحرُّك خلال دقائق. لن أستطيع الانتظار.

كُنت كالطائر الذي كان يُحلِّق بسعادة في عنان السماء، ثم فقد قدرته على الطيران فجأة، فتجمَّد مكانه لتلك الثواني السابقة على رحلة السقوط المُريع. شطَّت أفكاري وانعقد لساني وتوقّفت كل جوارحي، فلم أنطق حتى سمعته يقول: (أستأذنك في إنهاء المُكالمة لضيق وقتي)، فأفقت وصرخت بلهفة قائلًا: (انتظر. انتظر. حسنًا أنا أُقدِّر ظروفك، ولكن أخبرني. ما مدى إمكانية إجراء الزيارة في غيابك؟).

- الأمر صعب.

- حسنًا. سأنتظر عودتك من الاجتماع. أنا أقبل الحضور متأخِّرًا إن كان ذلك سيُناسبك.

- أنا آسف سيد رائف. لا أضمن عودتي من الأساس. عليَّ إنهاء تلك المُشكلة قبل سفري.

- لا بأس. لنؤجِّل زيارتي للصباح. هي في جميع الأحوال لن تستغرق...

قاطعني بعصبية شديدة ونفاد صبر قائلًا: (مستحيل. أقول لك إن عندي مشكلة كبيرة في العمل. ألا تسمعني؟).

- أُقدّر ذلك. بالإمكان إرجاء الزيارة حتى ظهر الغد.

- سأُكرّر عليك حديثي للمرة الأخيرة. أنا سأُسافر غدًا ظُهرًا خارج البلاد، ولن أعود قبل يوم الاثنين. وعليَّ إنهاء المشكلة خلال ما تبقَّى من ساعات. هل فهمت؟

كُنت سأقول له بحدَّة إنني لا أستجديه أو أشحذ منه. أنا أعمل لمصلحة ابنه ولإعادة تأهيله. تردَّدتُ لوهلة في أن أُصارحه بأن غدًا هو آخر أيام فترة اختباري! لكن لساني انعقد مرة أُخرى. رجَّحت أن كل ذلك لن يكون مُجديًا في ظل تلك الظروف التي يبدو أنها أفقدته عقله ولباقته!

أو ربما لم يعد مُمكنًا بعد أن أنهى هو المُكالمة دون أن يُمهلني الفرصة لذلك!

وزال أملي في إتمام هذا الملف الأخير. أمرٌ لم أكن أضعه في الحُسبان! كان عليَّ أن أحتاط لذلك. لاسيما وقد أُجَّلَت السيدة ريهام إحدى زياراتي من قبل؟! كان ضروريًّا أن أنتبه إلى أن هذا الاحتمال قائم! كان حريًّا بي ألّا أُؤجّل عملي لآخر لحظة كما فعلتُ في هذا الملف!

هممت بالاتصال بأكرم لأُخبره بما حدث، لكنني تراجعت عن ذلك. مازالت نبرة السعادة في مكالمتنا السابقة كانت تتردَّد في أُذني وهو يُهنّئني على إتمام الملفات، فآثرت ألّا أكدِّر صفوه بهذا الخبر المُحبط. أعلم في جميع الأحوال أن الأمر سيكون خارجًا عن قدراته. هو أخبرني كثيرًا أن تثبيتي في الوظيفة مرهونٌ بتقديم تلك التقارير كاملة في الموعد، وأنه لا بديل عن ذلك. قال هذا لشهور لم أُنصت له فيها!

كثيرًا ما تناولت موضوع فقد هذه الوظيفة بتهكُّمٍ وعدم مبالاة، فكنت أُداعب الجميع بأيامي المعدودة فيها! لم أهتم يومًا بتثبيتي عليها، لكن شعوريَ بعد هذه المُكالمة أكّد لي أن الأمر قد اختلف تمامًا.

تأمَّلْت في أن يقبل المدير عُذري إن عُرِضَت عليه ظروفي الخاصة، أو أوضحت له أسباب تعذُّر إنهاء هذا الملف. بالتأكيد أكرم سيدعمني في ذلك وقد شعر بالتغيُّر الذي طرأ عليَّ. المُدير نفسه يُقدِّر أعمالي ويُثني عليها. ربما أن ذلك هو الأمل الوحيد. وإن كان ضعيفًا.

جلست على المكتب لأتأمّل ملف حسن. كانت أفكار تقريره وفقراته مُرتَّبة في ذهني ووافية إلى حدٍّ كبير. بإمكاني كتابة التوصيات النهائية المناسبة له. مُشكلتي الوحيدة كانت أنني لم أُقابله! فأنا مُلتزم بتدوين نتائج مقابلته وسرد أوصاف شخصيته. أنا لم أُجالسه ولو لمرةٍ واحدة، وما كان لي أن أدَّعي ذلك! ليتني تجاوبت في الزيارة الأخيرة مع رغبة والده في استدعائه!

لم أجد شهية لتذوُّق الطعام. حماسي لكتابة تقرير أمجد بدأ يفتُر، فغسلت وجهي وأعددت القهوة ثم عُدت لأجلس على مكتبي وأُطالع تلك المُسوَّدَات التي وضعت فيها بعض أفكاري، فاستعدتُ بعض تركيزي وبدأت أكتب التقرير، وسرعان ما انطلقت يداي بتلقائية لتُسطرا فقراته المُتسلسلة.

تلقَّيت اتصالًا من عماد أبلغني فيه بأنه تعافى وعاد للعمل اليوم، فلاحظ غيابي وآثر الاطمئنان عليَّ. شكرته وأبلغته بسعادتي باتصاله وأحطته بأسباب غيابي. بالطبع انتبه لنبرة يأسٍ كست صوتي فسألني عن سببها، فأخبرته بما حدث بشأن زيارة حسن، واساني لهذا الحظ العثِر وهوَّن الأمر عليَّ مُرجِّحًا أن الإدارة ستُقدِّر ظروفي، فقدَّرت له شعوره وشكرته ثم أنهيت الاتصال بعد أن أكدت عليه ألا يُخبر أكرم بالأمر.

أكملت تقرير أمجد حتى أنهيته. راجعته مرة تلو الأخرى حتى وجدته مُناسبًا، فطبعته ووضعته في الملف الخاص به، ثم فتحت ملف حسن لأختبر مدى قدرتي على إعداد تقريره دون إجراء تلك الزيارة الأخيرة. بدأت بالفعل في كتابته بانسيابية، فوجدت نفسي أنهيته دون أي صعوبة. كانت الثغرة الوحيدة فيه هي عدم مُقابلة الفتى. طبعت التقرير وأعدت قراءته بتركيز فوجدته بالفعل مُحكمًا. لكن يدي لم تُطاوعني على توقيعه، فوضعته على المكتب وحفظت مسوَّدته على الحاسوب ثم أغلقته.

أطفأت ضوء الغرفة استعدادًا لنومٍ كُنت أعلم أنه قد لا يزورني في هذه الليلة رغم إجهادي الشديد، وبالفعل؛ ما أن أغمضت عيناي حتى تداعت الأفكار على رأسي. بدأ الشيطان يُسوِّل لي تقديم تقرير حسن بعد أن أسدَّ تلك الثغرة بأوصاف الفتي، أنا شاهدته وأذكر ملامحه، ومن السهل تخمين سماته الشخصية من واقع حالته التي شخَّصتها جيدًا. الأمر لن يكون غشًّا أو خداعًا كما أظن.

رُحت في غفوةٍ زارتني خلالها أُمِّي. وجدتها تجلس أمامي على الفراش. كانت تبكي وهي تقول لي: (أهذا ما غرستُه فيك يا رائف؟ أَستُزوِّر التقرير المطلوب منك؟).

- لا يا أُمِّي. هذا ليس تزويرًا، أنا فقط سأُعالج ثغرة صغيرة فيه.

- بل ستكتب شيئًا لم يحدث.

- لا يا أُمِّي. أنا بالفعل قمت بزيارة أسرة الطفل مرَّتين، وشاهدت الطفل. أنا بذلت ما عليَّ.

- أنت تكذب يا رائف. أعلم أنك لم تكن ترغب في تلك الوظيفة. أنا ووالدك من أجبرك على قبولها. ونطلب منك الآن أن تتركها. لقد اكتشفنا أنك غير أهلٍ لها.

انتفضتُ معتدلًا في الفراش وأنا أقول لأُمِّي: (لا... لا يا أُمِّي... لن أفعل).

كان قلبي ينتفض بشدّة. تلفّتُّ حولي باحثًا عنها بشوقٍ شديد. كُنت أحتاج لوجودها. أردت أن أرجوها لتغمرني بتلك الدعوات التي كانت تُردِّدُها عليَّ دون أن تعلم بأزماتي، فتنفرج بعدها كل أموري. أردت أن أُوضِّح لها أنني لن أفعل ما تخشاه. إنها بالفعل لا تفهم ما سأقوم به. الأمر ليس تزويرًا كما ظنت... لكنه... لكنه يُشبه التزوير إلى حدٍّ ما!

ظلّت أفكاري تتلاعب بي حتى غلبني الإرهاق ونمت.

* * *

تملّكني الصُّداع بعد ليلةٍ صعبةٍ تَنَاوَبَتْ عليَّ فيها الكوابيس. زيارات أُخرى وردتني من أبي وأُمِّي يلومانني فيها على نيَّتي التي وصفاها بالخبيثة، ورغم كثرة الزيارات إلا أنني لم أتمكّن من توضيح الأمر لهما! كما لم أحظَ بأيّ دعاءٍ من أُمِّي خلالها!

اعتدلت في الفراش وقد اكتشفت أن زيارتي للمكتب اليوم ستكون الأخيرة. تنهّدت تنهيدةً طويلةً حين تذكَّرت تلك الأيام التي كُنت أتمنَّى فيها بلوغ تلك الزيارة لأتحرَّر من قيد ذلك العمل الذي حسبته عقيمًا. حين كان عقلي فارغًا رافضًا للعمل والحياة.

والآن، وبعد أن تغيَّرت مفاهيمي للحياة وأقبلت على العمل؛ أعلن هو رفضي. هكذا الأمر ببساطة!

لم تكن لديَّ أيُّ شهية لتناول الإفطار، ففتحت خزانة الملابس ليطلَّ لي ذلك الطاقم الجديد الذي جهَّزته قبل أيام لأرتديه في هذا اليوم المُنتظر. شردت في أحداثه التي كُنت أنتظرها وأتحمَّس لها. استقبال حافل وأحضان حارَّة وتهانئ من الزملاء. ضحكات ونكات نتبادلها حول نوادر سلوكي القديم وتعليقاتي العابثة الرافضة للوظيفة.

أزحت الطاقم جانبًا، واخترت آخر ارتديته بخمول، ثم وضعت الملفات في حقيبتي وغادرت.

كان ذهني شاردًا أثناء طريقي في نصائح أكرم القديمة. الوقت يمرُّ يا رائف. الوظيفة رائعة وستندم على فقدها. عليك إنهاء تلك الملفات خلال الموعد. لا تُخيِّب ظن والديك... تكررت كثيرًا تلك العبارات، لكنني لم أكن أسمعها، أو بالأحرى لم أكن أكترث لها؛ لأنني بكل بساطة لم أكن مهتمًّا بالوظيفة.

استقبلني أكرم حين وصلت بابتسامةٍ واسعة، لكنها سرعان ما زالت حين لاحظ وجومي. ظل يتساءل عن الخطب دون أن أُجيبه. انتهزتُ التفاته لسكرتيرته التي نادته وانصرفْتُ.

دخلت غرفة مكتبي لأجلس على الطاولة وأنا أتأمَّل حقيبتي، حيث أضع حاسوبي الذي تحمل ذاكرته مُسوَّدة تقرير حسن الذي لا ينقصه سوى عبارات بسيطة ليكتمل. كِدت أستجيب لشيطاني، لولا أنني نظرت إلى النافذة فلم أجد أمِّي التي اعتدتُ أن أراها في الأُفُق وهي تتباهى بي أمام أقرانها. انتفضتُ بقلبٍ موجوع لأطلّ من النافذة باحثًا عنها. لقد رحلت عن المكان. ولن تعود. نفضت الفكرة على الفور عن رأسي. لن أُقدِم على تلك السقطة البشعة. عليَّ أن أدفع ثمن استهتاري وأتحمَّله. لو لجأت لتلك الحيلة لفقدت شغفي واحترامي للوظيفة التي ما أحببتها إلا حين باشرت مهامها بشرفٍ وأمانة.

حضر أكرم إلى مكتبي وهو يصيح: (ما الأمر يا رائف؟ لِمَ لا تردُّ عليَّ؟)، فأجبته بيأس: (الأمر بكل بساطة هو أنني لم أتمكّن من إنهاء ملف حسن).

- ماذا تقول؟ كيف وقد أخبرتني أنك ستُنهيه أمس.
- والده رفض استقبالي.
- حسنًا. اذهب اليوم وأنهِ الأمر.
- لديه مشكلة في عمله تستدعي وجوده بالشركة حتى ظُهْر اليوم، حيث سيُسافر خارج البلاد، وقد رفض تمكيني من إجراء الزيارة في غيابه.

تفاجأ أكرم بما سمعه. صاح بغضب: (صمِّمْ على الزيارة ولا تسمح له بالتنصُّل...) فقاطعته بغضب: (حاولت بكل الطرق، لكنه رفض وأغلق الاتصال في وجهي!).

سقط أكرم على المقعد المُقابل لمكتبي ليضع وجهه بين كفَّيْه بإحباط، فجلست على المقعد المواجه له، وأخرجت الملفات من الحقيبة، ووضعتها على الطاولة الصغيرة الفاصلة بيننا، لكنه لم ينتبه.

استمرَّ صمت أكرم رغم حاجتي المُلحَّة لسماع صوته. انتظرت أن يُدلي بأي تعليق. تمنَّيْت أن يكون لديه حلٌّ لهذه المشكلة! أن يُفاجئني بإمكانية تجاوُز الأمر أو الاكتفاء بباقي الملفات التي أنجزتها. أن فترة الاختبار يُمكن مدُّها لبضعة أيام؛ نظرًا لنشاطي ودأبي في الفترة الأخيرة. خمّنت ألف حلٍّ، لكنه ظلَّ صامتًا حاجبًا وجهه عنّي، فانتفضت خارجًا من غرفة المكتب. سلكت طريق المغادرة مُحاولًا تجنُّب الحديث مع الزملاء أو مُواجهتهم. لم أُصادف عماد في طريقي، فحمدت الله، فهو ما كان سيتركني وأنا في هذه الحالة من الضيق.

دُرت بسيارتي في الطريق بلا هدف. مررتُ أمام بعض المقاهي التي كُنت أثق أن بها رفقةً قديمةً تسلّلوا من أعمالهم للتقابل على طاولاتها. كُنت أُشاركهم تلك الجلسة في الماضي، لكنني لم أشعر بأي رغبة في الانضمام لهم هذه المرة.

تعمَّدت عدم الردِّ على عدة اتصالات وردتني من أكرم؛ فقد كان ردُّه الصامت أثناء جلستنا في مكتبي أبلغ من أي حديث سيُلقيه على مسامعي عبر الهاتف. هو يعلم نظام العمل وظروفه جيدًا، ولو كان لديه الحل ما شاهدته في هذه الحالة من اليأس التي أزعُم أنها لم تنتَبْه يومًا في حياته. سأتصل به فور أن أتخلَّص من تلك الكآبة التي تملّكتني. سأتّصل به لأضحك كما كُنت أفعل قبل أسابيع. سأُخبره بأنني لا آبه لهذا العمل، ولا أرغب في الاستمرار فيه.

لم أكن أرغب في العودة للبيت، لكنني لم أجد بُدًّا من ذلك بعد أن تملّكني إرهاق يومين حافلين بالعمل والإحباط وقلَّة النوم.

ساعتين قضيتهما أُقلّب جانبيَّ على فراشي دون أن يُراودني النوم. حتى تلك القيلولة الساحرة جافتني! انتابت جسدي آلام متفرِّقة لا أعلم سببها، وكأنني كُنت أمرُّ بأعراض انسحاب مُدمن مُنعت عنه العقاقير التي تمكّنت منه! ظللت على هذه الحال حتى رنَّ هاتفي.

كان عماد هو المُتّصل، فأجبته قائلًا: (لا تهتم يا عماد. أنا بخير. لست حزينًا).

- أعلم جيدًا أنك كُنت تستحق هذه الوظيفة.
- لكنني قصَّرت واستهترتُ بالأمر في بدايته، لذلك فالنهاية مُستحقَّة بالنسبة لي.
- ليست نهاية الحياة على كل حال. أنا واثق من أن المكتب هو الخاسر. سيفتقد شخصًا رائعًا.
- عليك أن تنتبه يا عماد. لا تفعل مثلي أرجوك. اعمل على ملفاتك مُبكِّرا ولا تتركها لآخر لحظة.
- لا أُخفيك سرًّا. وجودك بالعمل كان حافزي للبقاء به. لقد بدأ ذلك الفتور يُعاودني...

قاطعته بحسم وغضب صارخًا: (ماذا تقول؟ لا تمزح. عليك التمسُّك بالوظيفة. لقد لاحظت غيابك اليوم بالفعل. أين كُنت؟).

- مررت ببعض الأصدقاء في مقهى مجاور للمكتب.
- أنت مُخطئ. مُستهتر. لا تفعل ذلك مرة أخرى.
- هوِّنْ عليك يا أستاذ رائف. أنت لتوِّك قلتها. لست حزينًا لفقد الوظيفة. هذه هي ذات مشاعري.
- أولًا. اسمي رائف وليس أستاذ رائف. ثانيًا. أنا بالطبع حزين. ما عنيته هو أنني قصَّرت في حق نفسي وفي حق الوظيفة. لذلك أستحق ما حدث. لذلك أطلب منك ألا تقع في الفخِّ ذاته.
- دعك مني. الأهمُّ أن تكون بالفعل راضيًا بالأمر. أنا أودُّ الاطمئنان عليك. أتسمح لي بزيارتك؟

كُنت بالفعل أحتاج لصحبة، لكن الفوضى كانت تعمُّ البيت الذي لا يصلح لاستقبال ضيوف، فحسمت الأمر قائلًا له: (سأُرسل لك موقع مقهى بالقرب لنتقابل فيه إن كان ذلك يُناسبك).

- حسنًا أرسله وسأُلاقيك هناك فورًا.

أرسلت له موقع مقهى الفراق، ثم بدَّلت ملابسي وغادرت لأُقابله. ما أن بلغت باب المقهى حتى وجدته جالسًا على إحدى الطاولات بشرود. اتجهت إليه وقد رصدت على وجهه علامات الإحباط واليأس. تبادلنا التحية ثم باردته قائلًا بلوم: (ما هذا العبث الذي سمعته منك يا عماد؟ أهذا كان اتفاقنا بشأن اهتمامك بالعمل؟). فنظر لي قائلًا بودٍّ: (صدِّقني يا رائف. أنا بالفعل ارتبطت بالمكان بسببك. أتعلم أنني كُنت أشعر بالغربة حين تغيب عن المكتب أثناء زياراتك التي كُنت تُجريها للحالات؟ كان شغفي للعمل يزول. أنا فعلًا تعلَّقت بك وأحببت شخصيتك، وكُنت جادًّا حين صارحتك برغبتي في أن أكون مُساعدًا لك).

صرفت عيني عن عينيه لأنظر عبر جدار المقهى الزُّجاجي أُراقب المارّة وقد أصابتني كلماته بالشجَن الشديد. تداخلت مشاعري. اندهشت كثيرًا من كل أولئك الأشخاص الذين فاق تعلُّقهم بوظيفتي اهتمامي الشخصي بها. أبي. أُمِّي. أكرم. حتى همس. وها هو عماد بدوره يُريد الانسحاب من العمل بسببي. وكأن آثار الالتحاق بالعمل لا تقتصر على صاحبه وحده، لكنها تغمر المُحيطين به، فتُحقّق للوالدين الفخر والطمأنينة، وللقرينة والأسرة الأمان والحماية، وللزملاء الأُنس والطموح.

(أكرم حاول التواصل معك)

قطع بها عماد شرودي، فأجبته بتلقائية: (لا أُريد أن أُثقل عليه. أعلم أنه لا حيلة له).

- يبدو أنه كذلك. لقد حاول هو والمُدير الحصول على مُهلة لتقديم تقاريرك حتى يوم الاثنين القادم، لكن الوزارة رفضت، وأفادت بضرورة إرسال الملفات لها صباح الأحد على أقصى تقدير.

- كُنت أعلم أن ذلك سيحدث. لا بأس. لقد استفدتُ من هذه الفترة على كل حال. يكفي أنني استكشفت نفسي التي لم أكن أعرفها قبله. أدركت قيمة العمل، كما تعرّفت بالطبع على أصدقاء جيدين ومُخلصين مثلك...

- (مُقاطعًا) لكن... أليس بإمكانك التقدُّم لذات الوظيفة مرة أخرى؟

- القواعد لا تسمح لذات الشخص بالتقدُّم لمرَّتين إن لم يتمكَّن من اجتياز فترة الاختبار!

وصمتنا أنا وعماد. يبدو أن ما تبقَّى له من أمل قد تبدَّد بفعل تلك العبارة الأخيرة، فكسا الإحباط وجهه. ظللنا كذلك لدقائق قبل أن يستقبل اتصالًا هاتفيًّا أجابه بفتور ثم قال لي: (يبدو أن عليَّ الانصراف)، نظرت له بلوم قائلًا: (ظننتك ستبقى معي لمزيدٍ من الوقت)، فأجابني بحرجٍ بالغٍ وهو يُلوِّح لي بظرفٍ كان يحمله قائلًا: (إنها أوراق مُهمَّة تخُصُّ أحد الأصدقاء وعليَّ توصيلها له).

- حسنًا. ولكن تذكّر... أنا لن أسمح بأن يحدث لك ما حدث لي. ستنتظم بالعمل شئت أم أبيت. وسأُشاركك تنفيذ المهام التي ستُسند إليك إن سمحت لي بذلك. أتفهم؟

- دعنا نتحدّث في هذا الأمر لاحقًا.

- بل لن نتحدَّث فيه ثانيةً. لقد حسمناه الآن، وعليك الذهاب للمكتب في موعدك صباحًا. عليك الانتظام في العمل.

- حسنًا يا رائف... صدِّقني سأُحاول.

رصدت تأفُّفَه وضيقه من طريقتي، لكنني ما فعلت ذلك سوى لشعوري بأنه شقيقي الأصغر. لن أنتظر أن يقع في ذات خطئي! تلفَّتُّ حولي قبل أن أسأله: (هل ستعود بعد قضاء تلك المُهمَّة؟).

- لو أردت ذلك فسأفعل. إنها لن تستغرق وقتًا.

- حسنًا سأنتظرك... (واستدركت) بإمكاني أن أُقلَّك إن شئت. هذا أفضل لي من الجلوس وحدي في انتظارك.

- كُنت سأقول ذلك لولا إشفاقي عليك... حسنًا... سأستغلُّك في توصيلي لإنجاز المهمَّة، ثم نُكمل جلستنا في أي مكان.

نهضنا على الفور قاصدين السيارة، وانطلقت إلى حيث كان يُوجِّهني عماد باقتضاب. كان الصمت والحُزن يُخيِّمُ علينا، لكنني كُنت أُحاول التخلّص منه قدر استطاعتي. حاولت استحضار تلك المُتعة والسعادة التي كانت تتملَّكني حين كُنت حرًّا. أسهر الليل في المقاهي وعلى النواصي دون حسابٍ للوقت. أُتابع مباريات كرة القدم أو أتسامر مع الصحبة حول ذكريات الطفولة

والشباب، وليكون أحدنا ضحية حفل تنمُّرٍ جماعيٍّ من قِبَلِ الباقين. نضحك حتى تدمع أعيُننا وتنفطر قلوبنا وتتمدَّد صدورنا، ثم ننصرف لأُتابع ليلتي مُتسكِّعا بسيّارتي، عابرًا مواكب العاطلين أمثالي، حيث ينشُد كلٌّ منَّا ضالَّته. ثم آوي للفراش بعدها وأنا أتصفَّح هاتفي لأُتابع أحاديث وتسجيلات يُرشِّحها لي مُشغّل الهاتف حتى أغُطَّ في نومٍ عميقٍ لا أستيقظ منه إلا بعد اكتفائي وامتلائي منه.

فرَّت دَمعة من عيني حين تذكّرت رحيل أُمِّي التي لن توقظني كما اعتدت بصوتها الحنون: (حان وقت العمل يا رائف... ماذا ستأكل يا رائف؟ ستُفرج بإذن الله يا بُنيَّ)، كما لن أراها عبر نافذة غرفة مكتبي التي كانت ترمقني من خلالها وتشحذ عاطفتي لها.

انتبهتُ حين طلب مني عماد التوقُّف. تلفَّتُّ حولي لأجد أننا نقف أمام ذلك المنزل الفاخر. منزل حسن! بدأت أنظر في المُحيط وأنا أتساءل بدهشة: (أين تُريدني أن أقف تحديدًا يا عماد؟)، فلاحظت ابتسامته تملأ وجهه وهو يُجيبني: (عند بيت حسن. ألا تُميِّزُه؟) فصرخت فيه: (ماذا تقول؟ هل أنت جاد؟) فاقترب مني وحضنني وأنا ما زلت أقود السيارة حتى كدتُ أصطدم بالرصيف وهو يقول: (إنهم في انتظارك سيد رائف. ولا تسألني عن التفاصيل. أَنهِ الزيارة أولًا ثم نُكمل حديثنا على المقهى).

توقَّفت بالسيارة على جانب الطريق وأنا مُتجمِّد في مكاني لا أفهم ما يجري، بينما كان عماد يدفعني للنزول طالبًا مني ترك السيارة له ليصفَّها قائلًا: (الوقت ينفد، ووالد حسن سيُسافر الليلة)، ثم ناولني الظرف الذي كان يحمله ليُردف: (هيَّا يا رائف. ملف حسن بيدك. عليك إنجازه الآن).

تحرَّكت من السيارة وأنا أُحاول استحضار عقلي الذي شلَّته المفاجأة. مشاعري تضاربت حتى كدتُ أبكي رغم تلك السعادة التي تدفَّقت لنفسي فجأة. تهيَّأ لي أنني أحلم، بل كُنت واثقًا من أن مُقابلتي لعماد منذ بدايتها حلم زارني بعد أن غلبني الإرهاق وتلقّفت أطراف القيلولة.

استقبلني والد حسن بحفاوة، فلم أتمالك نفسي عن سؤاله: (ألم تقل إنك ستُسافر ظُهر اليوم؟).

- هكذا كانت خُطَّتي. لولا زيارة زميلك الذي أخبرني بأهمية هذه الزيارة بالنسبة لك، فتفهَّمت الأمر وأجَّلت السّفر للمساء. لم يكن لائقًا أن أتخلَّى عنك وأنت تُقدِّم لنا المُساعدة والعون.

- وماذا عن تلك المشكلة التي حلَّت بشركتك.

- تمكَّنَّا من حلّها أمس والحمد لله. اعذرني على غلظتي معك في المكالمة. الأمر كان مُزعجًا.

- الحمد لله... الحمد لله... الحمد لله.

- أخبرني ما سنفعله الآن.. فالوقت بالفعل ضيِّق.

أخرجت الملف من الظرف لأشعر بأنني قد استعدتُ في تلك اللحظة حياتي، فتحت الملف بشوقٍ شديد، لأُجد بداخله زهرة. إنها زهرة سكرتيرة أكرم. اغرورقت عيناي بالدموع رغم تلك الضحكة الهيستيرية التي قفزت من صدري، وزالت عنّي كل أوجاعي. نسيت كل ما مرَّ بي منذ ليلة أمس.

نظرت لوالد حسن بابتسامة وأنا أسأله عن أخبار حسن، فانفرج وجهه بابتسامةٍ خمَّنت منها انضمامه لبعض جلساتهم قبل أن يَبُوح هو لي بذلك بسعادةٍ غامرة، فاتَّسعت ابتسامتي وأنا أهنِّئه بحرارة. سألني عمَّا أشربه، فأفلتت ضحكة من فمي قبل أن أردَّ سؤاله بسؤالٍ كسوته بنبرة استنكارٍ قائلًا: (أكان المشروب مُعلَّقا على تلك النتيجة؟)، فضحك وقد فهم مغزاي، وقال بودٍّ شديد: (سامحني على جفاء استقبالك في الزيارات السابقة. كان قلقي على حسن يعتصر قلبي، لكنني كُنت أُحاول إخفاءه).

- الأمر لم يكن لهذا السبب وحده سيدي، وإنّما لأنك بدورك كُنت تحتاج لتلك الحالة من البهجة الأُسرية التي افْتَقَدَتْها مُعظم بيوتنا. أَنْ تكون التكنولوجيا هي وسيلتنا الوحيدة للتعبير عمَّا في نفوسنا خطأ كبير. لقد أغرقنا في استعمالها في عملنا ولهونا، حتى واجباتنا الاجتماعية من مواساة أو تهنئة أصبحت من خلالها! لقد أصبح الأمر تمثيلًا ماسخًا جمَّد مشاعرنا الحقيقية وأضرَّ بها أبلغ الضرر.

كان يُتابعني باهتمام، فمازحته بابتسامة قائلًا: (يا عزيزي؛ كُلُّنا مُدمنون!).

ظهرت الوالدة لأول مرَّة لتُقدِّمَ لنا المشروبات الغازية حين لم يصلها اختياري لمشروبٍ مُحدَّد. التمست من عينيها اللامعتين أنها شديدة الامتنان لي. يبدو أنها بدورها قد أصابها التغيير. تحسَّنَت أحوال الجميع بعد بضعة أيام من الاقتراب لبعضهم واجتماعهم للتنافس على ألعابٍ بسيطة، فشعروا بالامتنان لي وأقبلوا للترحيب بي.

سألني الوالد إن كان سيستدعي حسن أم لا، فأجبته بسؤالٍ هذه المرة أيضًا قائلًا: (أتظن أنه سيستجيب لك؟)، فأجابني بابتسامة واثقة: (بالتأكيد سيفعل. أَتَعْلَم أنه سألني بعد زيارتك السابقة عن هويَّتك؟).

- وماذا قلتَ له؟

- قلت له صديق دراسة قديم.

- الكذب لا أرجل له يا عزيزي! وماذا عن فارق السنِّ بيننا؟

- هو في الأصل لم يُصدِّق، فصمَّمت على قولي، وأخبرته بأنك كنت تقيم بالخارج ولتوِّك عُدتَ. كان هذا هو التصوُّر الأكثر ملاءمةً في رأيي.

انفجرت ضاحكًا وأنا أقول له: (والأكثر انتشارًا في الأفلام السينمائية القديمة كذلك!).

- الأهمُّ من ذلك أنه قال لي إنه يلعب الشطرنج على حاسوبه، يصرخ كما كنا نصرخ أنا وأنت، لكنه كان يكتم صرخاته في صدره. يقذف جهاز التحكُّم إذا كَسِبَ أو خَسِر. يشدُّ شعره أو يلطم خدَّيْه حين يتلاعب به الحاسوب أو يفرض عليه حركة لم يكن يقصدها. يضرب وسادته بقبضة يده بعصبية إذا تبَاطأت سرعة الإنترنت....

- (قاطعته) كل ردود الفعل هذه تترك بنفسه تراكمات ورواسب خطيرة. ما أسخف المشاعر المكتومة. الحزن أو السعادة. كلُّها تُميت القلب.

- لقد طلب مني ذلك اليوم أن يُشاركنا الجلسة في زيارتك التالية، وأن يثأر لي من ذلك الدور الذي خسرتُه أمامك!

مهما وصفتُ سعادتي بما أسمعه ما وفّيتها قدرها. لقد بدأ حسن طريق التعافي بأسرع ممَّا توقَّعت. ودون أن أُغرق في تلك المقالات والأبحاث.

ظهر حسن نازلًا دَرَج البيت استجابةً لنداء والده. كان يُخفي تردُّده وخجله، فصحت قائلًا: (أين ذلك الفتى الذي يدَّعي أنه سيثأر لوالده؟)، فابتسم وهو مُقبل علينا. سلَّمتُ عليه بحرارة وطبعت قُبلتين على وجنتيه وأنا أُردد أنني سمعت عنه الكثير واشتقت لرؤيته، فقال لي إن استذكار دروسه يستغرق وقته كلَّه، فغمزت له بخُبث زاعمًا أنني شاهدت ذلك بنفسي حين صعدتُ لغرفته، طلبت منه أن نبدأ في ذلك الثأر الذي ينتظره والده على أحرَّ من الجمر قبل أن يتحرَّك لرحلته. كانت طاولة الشطرنج مرصوصة وجاهزة، تمامًا كما طلبتُ من والده في المرة السابقة.

ذكاء حسن كان حادًّا، حركاته على طاولة اللُعبة كانت رغم سُرعتها محسوبة بدقَّة متناهية، بدأت أستدعي شياطيني لتلعب معي، فاجأني حسن سائلًا عن وظيفتي، أسقطت الصدمة حصاني على الأرض، انحنيت لالتقاطه، فالتقطت معه إجابتي التي لمعت أمام عيني، فردّدتها له بحماس: (أردت أن أكون طبيبًا شرعيًّا)، اتَّسعت عيناه وقد تفاجأ بتلك العبارة السحريّة، وسألني: (ألم تكن مع والدي في الكلية؟). سقط قلبي هذه المرَّة دون الحصان. طالما كُنت أكره الكذب الذي لا أرجل له ولا عُمْر. أجبته بحرج وأنا أرمق والده بنظرة لوم: (عاصرت والدك قبل المرحلة الجامعية. نحن حتى لم نكن في ذات السنة الدراسية. ألا تُلاحظ فرق العُمر بيننا؟).

- إذًا فقد التحقت بكلية الطب.

- كنت أودُّ يا حسن، لكن الأمور لم تسِرْ في الاتجاهات المأمولة.

- لم تُحرِز المجموع المناسب؟

قالها وهو يُحرِّك الفيل ليضعه في خانةٍ أربكتني، فأجبته وأنا شارد: (أجل).

- ولماذا لم تلتحق بها في إحدى الجامعات الخاصة؟

- التكلفة كانت باهظة.

- حسنًا. وماذا فعلت؟

- درست تخصُّصًا بعيدًا كل البعد عن الطب! التحقت بكلية الخدمة الاجتماعية! رغم أنني كنت «علمي - علوم» بالمناسبة.

كانت الحركة الأخيرة ليفوز حسن بالدور عن جدارة لتعلو تهنئة والده له. من حُسْن الطالع أن تلك الخُسارة برَّرت عَرَقي النابت على جبيني تداعيًا لحديثي معه، قدَّم لي منديلًا وطلب مني مُداعبًا أن أُجفِّف عرقي. بالفعل بدأت أمسح جبهتي ووجهي وقد اتَّسعت ابتسامتي، متوعِّدًا له أن أثأر لنفسي في الزيارة التالية، فقام عازمًا الصعود لغرفته، فطلبت منه البقاء معنا. سألته عن

دراسته ومدرسته التي وجدت أنه على استعدادٍ لبدء الانتظام بها. بدأ يشرح لي ذلك الولع بالألعاب الإلكترونية الذي أصابه، فحذَّرته من أن يترك نفسه ليكون أسير تلك الألعاب، وأوضحت له ذلك الفارق الذي سيجده حين يُمارس الرياضات البدنية أو يُشارك الأُسرة في الألعاب التقليدية التي تُحيي المشاعر وتُنفِّس الانفعالات. طلبت من والده في حضوره بإبدال شاشته الكبيرة بشاشةٍ أصغر حجمًا كيلا تضر عينيه اللتين بدأ بالفعل يشكو ضعفهما.

وبعد أن أنهينا حديثنا نهض حسن ليصعد غرفته، فطلبت منه أن يكتفي بهذا الدور الأسطوري، وألّا يلعب على شاشته دورًا آخر؛ كيلا يفقد نشوة انتصاره، فأجابني بأنه لن يفعل؛ لأن الإنترنت أصبح شديد البطء ولم تتم صيانته. ابتسمت وأنا أدعو في سرِّي أن يدوم ذلك.

شكرني الوالد كثيرًا ورجاني ألّا أبخل عليهم بالزيارة كلّما سمحت ظروفي، فوعدته بذلك وانصرفت، وقد زال عنِّي أسى هزيمتي ليغمرني شعور بالانتصار الرائع الذي حقَّقته مع هذا الفتى.

وجدت عماد ينتظرني بابتسامته الواسعة، فتلقَّفته لأحتضنه بحبٍّ شديد، ولتنهمر دموعي هذه المرة بلا حساب. اتّصلت في طريقي بأكرم وشكرته أيضًا على هذا الجميل الذي لن أنساه له ما حييت. كُنت مُمتنًّا للجميع لدرجة أعجزتني عن التعبير. طلب مني أكرم الحضور للمكتب غدًا لتقديم الملفات ليتمكَّن من مراجعتها قبل إرسالها للوزارة. اندهشت بالنظر لأن غدًا سيكون يوم الجمعة، لكنه أخبرني أن تلك هي تعليمات المدير الذي قد يُشاركنا مراجعة الملفات والتقارير، فوعدته بذلك، وبعد أن أوصلت عماد لبيته انطلقت عائدًا للبيت بشغفٍ بالغ.

فتحت حاسوبي فور أن دخلت حجرتي، وأضفت العبارات التي كانت تنقص تقريري. رؤية ذلك الفتى الجميل وانطباعي عنه. وضعت وصفًا تحليليًّا لشخصيته الرائعة وذكائه الحاد الذي خمَّنت منه تمييزه لحقيقة وضعي وأسباب زيارتي لهم دون أن يُظهر ذلك، ثم أغلقت الحاسوب وأنا أنظر لساعتي. عليَّ أن أنام مُبكِّرا لأستطيع مُناقشة أكرم في التقارير وتوضيح ما سيطلبه.

* * *

استيقظت بنشاطٍ جمّ. الجوُّ كان صحوًا والشمس ساطعة سطوعًا لم أشهده من قبل. الضوء ينشُر أملًا ودفئًا يبُثّه في كل من يُصادفه. ثقةٌ تملأ النفس وإقبالٌ على الحياة. فقط علينا أن نستيقظ مُبكِّرا لنكون من أصحاب الحظ والحظوة لنتلقَّى كل ذلك.

صدقتِ يا أُمِّي الحبيبة. من لا تحتمل عيناه الضوء سيبقى في الظلام.

ارتديت ذلك الطاقم الجديد تحسُّبًا لمُقابلة المدير. تناولت إفطاري وقهوتي لأنطلق قاصدًا العمل. حماسي كان بالغًا جامحًا لم تكبحه سوى تلك الإشارة التي أعلم أنها تمتدُّ، فأخرجت هاتفي المحمول لأتصفّحه. ابتسمت وقد انسابت على شاشته مقالاتٌ ومشاهد شديدة الحكمة والتفاؤل والجمال. إحداها كانت تقول: (لا تأْسَ من التراجع للخلف قليلًا، فكلّما تراجع السهم زادت قوَّته وأبلغ في تأثيره).

صحت مناجيًا أُمِّي لأُبشّرها بأن هاتفي قد تعافى من خُبثه وأصبح صالحًا. دعوت لها باشتياقٍ، فتحوّلت الإشارة ببركة ذكرها إلى اللون الأخضر.

وردني اتصال من سماح، أجبته لتُبادرني قائلة: (الغداء اليوم عندي وليس عند خالتي ككل يوم جمعة).

- كُنت سأنسى أمر الغداء بالفعل، فأنا في الطريق للعمل يا سماح. قد لا أتمكّن...

- (مُقاطعة) غير مقبول. عليك إنهاء العمل سريعًا والحضور.

- ما الخطب؟ لقد بدأت أنزعج.

- لا تقلق. فقط لدينا ضيف على الغداء ستسعد كثيرًا لرؤيته.

كُنت قد وصلت المكتب في تلك اللحظة، فسألتها باستعجال: (ماذا تعنين يا سماح؟ وقتي ضيِّق. من تقصدين بذلك الضيف؟)

- لا عليك. إنها مُفاجأة.

- لا أُحبُّ هذه الطريقة، ولا وقت لديَّ للتخمين. أنا وصلت العمل بالفعل. أخبريني ما الأمر.

- حسنًا حسنًا... اصعد لمكتبك الآن وسأتّصل بك لاحقًا. أحمد يُناديني.

وأنهت سماح المُكالمة دون أن تُجيبني، كانت نبرة صوتها سعيدة، حاولت تخمين شخصية ذلك الضيف لولا أنني صادفت أحد الزملاء الذي أخرجني من تركيزي حين أقبل مُرحِّبا وصاحبني حتى دخلنا مقر العمل.

كانت الحركة دؤوبة وكأنه يوم عمل عادي! أكرم أخبرني من قبل أن العمل بالمكتب لا يقتصر على ساعات وأيام العمل الرسمية. أرى ذلك جليًّا الآن.

أقبل عددٌ من الموظفين لاستقبالي بحفاوةٍ بالغة! كان استقبالًا مُميَّزا لم أعهده، اكتسى وجهي

بحُمرة الخجل وقد خمَّنت أن أكرم رتَّب لأمرٍ ما. أكَّدت ظنوني شرائط الزينة المتلألئة التي كانت تتدلّى من سقف الممر الذي اجتزته حتى وصلت لغرفة مكتبي.

فتحت الباب لأجد أكرم أمام الطاولة وقد وضع عليها كعكة كبيرة الحجم وعبوات عصائر. أكواب وأطباق كان عماد يرُصُّها على أطرافها بابتسامةٍ واسعة، وسرعان ما توافد الموظفون على المكتب وهم يحملون الهدايا ويصيحون بالتهاني والمُباركات على إتمامي فترة الاختبار، انفجرت ضحكتي وأنا أُرحِّب بهم وأشكرهم بودٍّ شديد. ذكرت لهم بحَرَج أن تقاريري ما زالت قيد التقييم، فصرَّح أكرم بصوتٍ مُرتفع أن تقريري الأول يُنبئ بكفاءتي، وأنه واثق من أنّ باقي التقارير ستكون كذلك.

اتّجهت أنظار الجميع لباب المكتب حيث ظهر المدير الذي حيَّاني بحرارة وأعرب لي عن ثقته بتثبيتي في الوظيفة بعد مناقشاته مع أكرم بشأني، فشكرته بامتنانٍ شديد، ليُغادرنا بعدها وهو يدعونا للاحتفال، فبدأ عماد في تقطيع الكعكة وتقديم الأطباق للحاضرين بابتسامة واسعة.

ترقرقت دموع السعادة من عينيّ، كنت أشعر بالامتنان البالغ للجميع، وكُنت أشعر بالنجاح. لم يحدَّ من سعادتي سوى ذلك الجرح العميق الذي كانت أناته تُراودني من آنٍ لآخر... ولم يكن هروبي منه يُفلح. كُنت فقط أتظاهر بذلك.

ميَّزت صوت هاتفي بصعوبة؛ بسبب صخب الزملاء وضحكاتهم العالية. التقطته وأنا أُغادر الغرفة لأتمكّن من الردِّ على سماح التي ظهر اسمها على شاشته. كان عليَّ أن أُقنعها بعدم قدرتي على مشاركتهم الغداء اليوم، فقد تُقدّر ظروفي وتقبل اعتذاري.

ما أن أجبت المُكالمة حتى انتفض قلبي من المُفاجأة، حين ميَّزت على الجانب الآخر ذلك الصوت الذي لم أنسَه يومًا. الصوت الذي كُنت أفتقده كثيرًا.

الصوت الذي لم أتمنَّ أن أسمعه في حياتي بقدر ما تمنيت في تلك اللحظة الفريدة... لتكتمل سعادتي.

* * *

تمَّت